# الإعجاز العلمي في ضوء البلاغة النبوية

## علم الوراثة والتشريح نموذجاً

دكتورة

نهلة صبري الصعيدي

الزهراء

الإهداء

بسم الله الرحمن الرحيم

الزهراء

**يقول مصطفى صادق الرافعي في بلاغة الرسول -ﷺ-:**

**(عرفوا منه الفصاحة على أتم وجوهها، وأشرف مذاهبها...لا يستكره في بيانه معنى، ولا يند في لسانه لفظ، ولا تغيب عنه لغة، ولا تضرب له عبارة، ولا ينقطع له نظم، ولا يشوبه تكلف... ولا يعتريه ما يعتري البلغاء في وجوه الخطاب، وفنون الأقاويل من التخاذل وتراجع الطبع، وتفاوت ما بين العبارة والعبارة، والتكثر لمعنى بما ليس منه... والعلو في موضع، والنزول في موضع.. وقد نزه عليه السلام عن جميعها، وكأنما وضع يده على قلب اللغة).**

**مصطفى صادق الرافعي**

## ملخص البحث

جاء هذا البحث انطلاقًا من أن الإشارات العلمية في السنة النبوية تبقى حجة على الناس كافة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وفي هذا العالم الذي نعيش فيه الآن اختلت كل الموازين إلا ميزان العلوم المادية، وأصبح الدليل العلمي المادي وسيلة كبرى للإقناع؛ بل لا أبالغ إذا قلت إنه الوسيلة الوحيدة المقبولة لدى الناس.

وقد أثبت هذا البحث صلاحية خطاب رسول الله -ﷺ- لكل زمان ومكان، وأنه قد أوتي جوامع الكلم، وكنوز المعرفة، وأنه -ﷺ- كان موصولًا بالوحي، معلَمًا من قبل الله عز وجل.

كما أثبت هذا البحث بلاغة الرسول -ﷺ- وفصاحته ودقة أسلوبه، وإحكام تركيبه الذي جاء متناسبًا مع تلك الحقائق العلمية حيث اختار من الأساليب أنسبها؛ إذ نجده قد اعتمد على الأسلوب الخبري الذي يتوافق مع إعلان هذه الحقائق العلمية، والثوابت اليقينية، كما اختار من الأدوات أوفقها للمناسبة؛ إذ اختار أدوات التوكيد؛ ليؤكد بها صدق هذه الحقيقة العلمية، إلى غير ذلك من الأساليب التي اعتمدها -ﷺ- لإقرار هذه الحقائق العلمية.

* * *

## مقدمة

الحمد لله خلق الإنسان، وفتق فاه عن جارحة اللسان، وأنطقه بعذب الكلام، وسحر البيان، وأوضح له من خلال آي ذكره سبيل الهدى ومنار البرهان، وأوقفه على إشراقات آياته وأبان له حقائق العرفان، والصلاة والسلام على من خصه تعالى بكمال الفصاحة بين البدو والحضر، وأعجز أمامه بلغاء ربيعة ومضر؛ إذ بوأه من الفصاحة ذروتها، وأقعده من البلاغة مكان صهوتها، حتى ظهرت من جبهته أسرار طلعتها، وتبلجت من بهجته أنوار زهرتها، وعلى إخوانه من النبيين والمرسلين ومن تبعه وتبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد،

فقد جاءت هذه الدراسة تؤمل نفسها بجبر ما نقص من دراسات تتعلق بقضية الإعجاز النبوي فقد شغلت هذه القضية مساحة كبيرة من الفكر الإسلامي على مر العصور، ولا تزال تشغله حتى عصرنا الحاضر ولقد تدارسها كثير من العلماء والفلاسفة وأصحاب الكلام وكان لكل منهم رأي ووجهة نظر، فأردت أن أتشارك معهم في الحديث عن إعجاز الحديث النبوي الشريف برؤية جديدة على أن يكون للبلاغة فيها حضور ودور فقدمت هذا البحث بغية إعانة المشتغلين في هذا الحقل على ارتياد آفاقه، وألا تكون البلاغة بمنأى عن هذه الموضوعات التي تعد ركنًا أصيلًا في هذه الدراسات.

ولم أتعرض في بحثي هذا إلا للأحاديث الصحيحة عن رسول الله -ﷺ- فهناك أحاديث أخرى في المعاني التي تناولتُها إلا أني لم أتعرض لها بالشرح والتحليل؛ لأنها لا يقوم لها سند ولا يحتج بها، ولم تثبت بوجه يصح عن النبي -ﷺ-، وإن كان معناها في الجملة لا بأس به.

وقد حاولت فهم النص النبوي الشريف في ضوء سياقه وأسبابه، وملابساته، ومقاصده، وتحديد ارتباطه –من عدمه – بعلة معينة منصوص عليها في الحديث أم مستنبطة منه، أو مفهومة من سياقه.

كما اقتصرت على الحقائق العلمية التي وصلت إلى حد القطع بها؛ ذلك أن إقحام ما عدا الحقائق القطعية مخاطرة ومجازفة تنقلب على السنة بالتشكيك فيها، وعلى الإعجاز بالاستهانة به وسلبه روح الإعجاز والتحدي.

كذلك لم يأت تفسير الحقيقة العلمية من منطلق الانبهار بالحضارة، والمكتشفات المعاصرة، ومن ثم التسليم المطلق بها لما له من الأثر التعسفي في حمل النص على وجوه بعيدة.

ولم يأت التحليل معارضًا لقواعد اللغة والنحو فقد راعيت فهم النص النبوي وفق دلالات الألفاظ في اللغة العربية، ووفق قواعد الإعراب والبلاغة وأساليب البيان والعرف اللغوي زمن ورود الحديث دون المعاني التي كثر تداولها فيما بعد

وقد تمثلت أهمية هذا البحث في عدة أمور أهمها:

١- تجديد بينة الرسالة في عصر الكشوف العلمية، وزيادة اليقين عند رؤية هذه الحقائق الباهرة حيث وردت على لسان أصدق الخلق وأكملهم سيدنا محمد –ﷺ–.

٢- تصحيح مسار العلم التجريبي في العالم، وأنه من الممكن الانطلاق من الحديث النبوي الشريف للوصول إلى حقيقة علمية لم يصل إليها أحد من قبل لو وعى المسلمون هذه الحقائق في سنة نبيهم فهي مليئة بتلك الإشارات العلمية والفتوحات الربانية.

٣- تنشيط المسلمين للاكتشافات الكونية، بدافع من الحوافز

الإيمانية؛ فالإعجاز العلمي محفز لهمم المسلمين كي يتابعوا مسيرة البحث والتجريب والمقارنة وغير ذلك من وسائل الكشوف العلمية والتقدم المعرفي.

٤- وسيلة من وسائل الدعوة القوية والمؤثرة في هذا العصر وأسلوب أخاذ من أساليب التبليغ والبيان لدين الله عز وجل.

٥- الرد على المرجفين في زمن العلم والتقنية بإثبات الإعجاز العلمي في أقوال رسول الله -ﷺ-

بأبلغ لغة وأفصح خطاب، وأدق أسلوب، وأحكم تركيب؛ وذلك لأن الغالبية العظمى من الناس في هذا الزمن قد فتنوا بالعلم ومعطياته فتنة كبيرة أعمتهم عن حقيقة رسالة الإنسان في هذه الحياة.

واستعنت في بحثي هذا بالأحاديث النبوية، والعديد من المراجع والندوات والدوريات المعنية بالموضوع، كما استعنت بالكثير من الأبحاث على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت).

وقد جاء هذا البحث في مقدمة، وخاتمة، وقائمة مراجع، وفهرس للموضوعات، وفصلين أساسيين هما:

الفصل الأول: علم الوراثة بين الإعجاز العلمي والبيان النبوي

المبحث الأول: قضية المورثات في الجنين بين الإعجاز العلمي والبيان النبوي

المبحث الثاني: الصفات الوراثية في الإنسان بين الإعجاز العلمي والبيان النبوي.

الفصل الثاني: علم التشريح بين الإعجاز العلمي والبيان النبوي

المبحث الأول: القلب بين الإعجاز العلمي والبيان النبوي

المبحث الثاني: الناصية بين الإعجاز العلمي والبيان النبوي

**المبحث الثالث: عرض القفا بين الإعجاز العلمي والبيان النبوي**

**المبحث الرابع: مفاصل جسم الإنسان بين الإعجاز العلمي والبيان النبوي**

**والله تعالى نسأل أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه، وأن يجعلنا من الناصحين لدينه وكتابه وسنة نبيه -ﷺ-.**

*** * ***

# الفصل الأول
# علم الوراثة بين الإعجاز العلمي والبيان النبوي

# المبحث الأول
# قضية المورثات في الجنين
# بين الإعجاز العلمي والبيان النبوي

١- حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ قَزَعَةَ، حَدَّثَنَا مَالِكٌ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ المُسَيِّبِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ -ﷺ-، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وُلِدَ لِي غُلاَمٌ أَسْوَدُ، فَقَالَ: «هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «مَا أَلْوَانُهَا؟» قَالَ: حُمْرٌ، قَالَ: «هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقَ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَأَنَّى ذَلِكَ؟» قَالَ: لَعَلَّهُ نَزَعَهُ عِرْقٌ، قَالَ: «فَلَعَلَّ ابْنَكَ هَذَا نَزَعَهُ عرق».[1]

٢- "حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَى الرَّازِيُّ وَسَهْلُ بْنُ عُثْمَانَ وَأَبُو كُرَيْبٍ - وَاللَّفْظُ لأَبِى كُرَيْبٍ - قَالَ سَهْلٌ حَدَّثَنَا وَقَالَ الآخَرَانِ أَخْبَرَنَا ابْنُ أَبِى زَائِدَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ مُصْعَبِ بْنِ شَيْبَةَ عَنْ مُسَافِعِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ امْرَأَةً قَالَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- هَلْ تَغْتَسِلُ المَرْأَةُ إِذَا احْتَلَمَتْ وَأَبْصَرَتِ الْمَاءَ فَقَالَ « نَعَمْ ». فَقَالَتْ لَهَا عَائِشَةُ تَرِبَتْ يَدَاكِ وَأُلَّتْ. قَالَتْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ-: « دَعِيهَا وَهَلْ يَكُونُ الشَّبَهُ إِلاَّ مِنْ قِبَلِ ذَلِكِ إِذَا عَلاَ مَاؤُهَا مَاءَ الرَّجُلِ أَشْبَهَ الْوَلَدُ أَخْوَالَهُ وَإِذَا عَلاَ مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَهَا أَشْبَهَ أَعْمَامَهُ »[2].

٣- حَدَّثَنِي حَامِدُ بْنُ عُمَرَ عَنْ بِشْرِ بْنِ الْمُفَضَّلِ حَدَّثَنَا حُمَيْدٌ حَدَّثَنَا أَنَسٌ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ بَلَغَهُ مَقْدَمُ النَّبِيِّ -ﷺ- الْمَدِينَةَ فَأَتَاهُ يَسْأَلُهُ عَنْ أَشْيَاءَ فَقَالَ إِنِّي سَائِلُكَ عَنْ ثَلَاثٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ مَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ وَمَا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ وَمَا بَالُ الْوَلَدِ يَنْزِعُ إِلَى أَبِيهِ أَوْ إِلَى

(١) صحيح الإمام البخاري، ( كتاب الطلاق، باب إذا عَرَّضَ بِنفْي الولد)، حديث رقم(٥٣٠٥)، الجزء١٣، ص٣١٣، تحقيق/ محمد زهير بن ناصر الناصر دار طوق النجاة، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ

(٢) صحيح الإمام مسلم، حديث رقم(٧٤١)، (كتاب الحيض، باب وجوب الغسل على المرأة بخروج المني منها، (١٧٢/١)، دار الجيل – بيروت.

أُمِّهِ قَالَ أَخْبَرَنِي بِهِ جِبْرِيلُ آنِفًا قَالَ ابْنُ سَلَامٍ ذَاكَ عَدُوُّ الْيَهُودِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ قَالَ أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فَنَارٌ تَحْشُرُهُمْ مِنْ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَزِيَادَةُ كَبِدِ الْحُوتِ وَأَمَّا الْوَلَدُ فَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ نَزَعَ الْوَلَدَ وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الْمَرْأَةِ مَاءَ الرَّجُلِ نَزَعَتْ الْوَلَدَ قَالَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ الْيَهُودَ قَوْمٌ بُهُتٌ فَاسْأَلْهُمْ عَنِّي قَبْلَ أَنْ يَعْلَمُوا بِإِسْلَامِي فَجَاءَتْ الْيَهُودُ فَقَالَ النَّبِيُّ -ﷺ-: أَيُّ رَجُلٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ فِيكُمْ قَالُوا خَيْرُنَا وَابْنُ خَيْرِنَا وَأَفْضَلُنَا وَابْنُ أَفْضَلِنَا فَقَالَ النَّبِيُّ -ﷺ-: أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ قَالُوا أَعَاذَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ فَأَعَادَ عَلَيْهِمْ فَقَالُوا مِثْلَ ذَلِكَ فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ عَبْدُ اللَّهِ فَقَالَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ قَالُوا شَرُّنَا وَابْنُ شَرِّنَا وَتَنَقَّصُوهُ قَالَ هَذَا كُنْتُ أَخَافُ يَا رَسُولَ اللَّهِ".[1]

٤- حديث ثوبان: "أن يهوديًا جاء يسأل النبي -ﷺ- قال جِئْتُ أَسْأَلُكَ عَنِ الْوَلَدِ؟ قَالَ: « مَاءُ الرَّجُلِ أَبْيَضُ، وَمَاءُ الْمَرْأَةِ أَصْفَرُ، فَإِذَا اجْتَمَعَا، فَعَلَا مَنِيُّ الرَّجُلِ مَنِيَّ الْمَرْأَةِ، أَذْكَرَا بِإِذْنِ اللهِ، وَإِذَا عَلَا مَنِيُّ الْمَرْأَةِ مَنِيَّ الرَّجُلِ، آنَثَا بِإِذْنِ اللهِ »، قَالَ الْيَهُودِيُّ: لَقَدْ صَدَقْتَ، وَإِنَّكَ لَنَبِيٌّ، ثُمَّ انْصَرَفَ فَذَهَبَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: « لَقَدْ سَأَلَنِي هَذَا عَنِ الَّذِي سَأَلَنِي عَنْهُ، وَمَا لِي عِلْمٌ بِشَيْءٍ مِنْهُ، حَتَّى أَتَانِيَ اللهُ بِهِ »").[2]

***

(٣) صحيح البخاري، حديث رقم (٣٩٣٨)، (٥٥٥/٩)، (كتاب فضائل الصحابة – كتاب مناقب الأنصار– باب كيف آخى النبي -ﷺ-بين أصحابه)

٢ صحيح الإمام مسلم، حديث رقم (٧٤٢)، (١٧٣/١)، (كتاب الحيض - باب بَيَانِ صِفَةِ مَنِيِّ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ وَأَنَّ الْوَلَدَ مَخْلُوقٌ مِنْ مَائِهِمَا).

## وجه الإعجاز في الأحاديث النبوية الشريفة:

أثبت علم الوراثة أن الطفل يكتسب صفات أبويه الخلقية والعضوية والعقلية، حيث إن في كل خلية من خلايا الجسم عددًا ثابتًا من أجسام صغيرة تسمى كروموسومات تحمل عوامل وراثية مسؤولة عن الصفات التي تظهر في الإنسان؛ حيث إن هذه الكروموسومات ما هي إلا الجسر الذى تنتقل عليه صفات النوع من جيل إلى جيل آخر.

وقد يكون تأثير العامل الوراثي خافيًا مستترًا، فيطلق عليه في هذه الحالة العامل الوراثي الكامن أو المتنحي.. وهذا ما أخبر عنه الرسول -ﷺ- في الأحاديث السابقة ..

فقد قرر -ﷺ- تأثير العامل الوراثي الكامن الذى أكدته بحوث علماء الوراثة؛ حيث إن علم الوراثة الحديث يؤكد أن الشبه بين المولود ووالديه قد يكون غير ظاهر، بل بعيدًا كل البعد عن كلا الأبوين.. كما حدث للرجل الذى جاءته امرأته بغلام أسود؛ حيث إن الصفات الوراثية قد تكون سائدة وقد تكون متنحية.

فإذا اتفق وكان كل من الأب والأم يحملان أحد هذه الصفات المتنحية، فإن ربع أولادهم تقريبًا ستظهر فيهم هذه الصفة المتنحية بصورة واضحة جلية؛ وذلك لاجتماع الصفتين من كل من الأب والأم.

من ذلك كله يظهر لنا أن الرسول -ﷺ- قد وضع معالم علم الوراثة وأسسه منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان، وفى ذلك إعجاز علمي قد أثبته العلم الحديث اليوم، والحديث الأخير يشير إلى حقيقة علمية لم تدرك العلوم المكتسبة شيئًا عنها إلا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي وأوائل القرن العشرين ألا وهي حقيقة توارث الصفات من الوالدين وأسلافهما إلى الأب الأول آدم عليه السلام.

ومنطوق الأحاديث يؤكد حقيقة قوانين الوراثة من قبل أن يصل إليها أي من العلوم المكتسبة بأكثر من اثني عشر قرنًا، ولا يمكن لعاقل أن يتصور في هذا الزمن القديم، وفي تلك البيئة البدائية مصدرًا لهذا العلم الدقيق غير الله الخالق الذي أوحى إلى خاتم أنبيائه ورسله بمثل هذه الحقائق العلمية هداية للناس في زمانه ومن بعد زمانه إلى يوم الدين، وشهادة بالنبوة وبالرسالة لهذا النبي الرسول الخاتم في زمن العلم والتقنية الذي نعيشه باللغة العلمية التي يفهمها أهل هذا العصر. .

❋ ❋ ❋

## بلاغة الأحاديث النبوية الشريفة

دل الحديث النبوي الشريف الأول على سعة علم رسول -ﷺ-، وقدرته التي لا تدانى في الحوار والإقناع، فقد استخدم الرسول -ﷺ- أسلوب الحوار؛ ليقنع الأعرابي بالحقيقة التي خفيت عليه، ولم يجبه بما سأل عنه، بل ساعده بهذا الأسلوب ليستخلص تلك الحقيقة بنفسه، حيث قدم إليه مثلًا حيًا يعايشه ويراه أمام بصره ويدرك سره فقد أرجع السائل إلى ما يعهده من إبله سائلًا إياه عن ألوانها حتى إذا قرر السائل الحقيقة بنفسه كانت الحجة دامغة تملأ عقله وقلبه، وتزيل ما قد ران على نفسه من ظلال الشكوك القائمة في زوجته فقد جاء الأعرابي والقلق يستبد بنفسه والحيرة والشك يملآن قلبه، فألقى عليه هذا الخبر الذي أدرك منه النبي -ﷺ- ما يجول بخاطر الرجل ويدور في عقله.

وحواره -ﷺ- فيه ما فيه من أدب التعبير، وانتقاء الألفاظ، والاستماع إلى الطرف الآخر، وقبول الرأي الآخر، وعدم الدخول في الجدل الطويل،

فكلماته موجزة واضحة موجهة إلى الهدف، فلم يدخل صلوات ربي وسلامه عليه في مناقشات وحوارات وجدل خارج عن الهدف الأساسي الذي أراد أن يوصله إلى السائل ولم يخض في حوارات خارجة عن إطار الموضوع.

وهذا واضح جلي عندما أخبر الرجل رسول الله -ﷺ- أنه ولد له غلام أسود، وكان هذا الإخبار بالتلميح دون التصريح، وهنا تبرز بلاغة الرسول -ﷺ- وحسن تعامله مع الموقف، فلم يدفع الفضول رسول الله -ﷺ- لسؤاله عن أمه ومن هي؟ ومن تكون ؟وإنما بادره صلوات ربي وسلامه عليه بسؤال غير متوقع؛ توصلًا إلى إقناع السائل، وجعله يدرك السبب في كون الغلام أسود، وهو ذلك العامل الوراثي من أحد الأعراق التي ينتمي إليها.

فما أروع رسولنا -ﷺ- وما أحوجنا اليوم إلى التأسي به في عدم الخوض في أعراض الناس، وعدم إقرارهم بسهولة أو موافقتهم على الاتهام؛ بل ينبغي الذب عن عرض المسلم، وما أفصح الجمع في قوله -ﷺ- : (ألوانها) حيث جاء معبرًا أدق تعبير وأتمه عن الغرض الذي هدف إليه السؤال، إنها ألوان مختلفة متباينة لا لون واحد، وتلك هي القضية التي من أجلها كان هذا الحوار.

إن كل كلمة انتخبت بذوق، واستعملت بحذق، فاستطاعت أن تبرز المعنى وتوضحه، وكان لوجودها قيمة كبيرة في السياق، ولاختيار صيغتها قيمة أكبر ودلالة أعمق، فهي دلالة مقصودة، لمعنى مقصود.

ونلاحظ الروعة والبراعة في المغايرة بين اسمي الإشارة حيث عبر مرة باسم الإشارة الذي هو للبعيد (ذلك) ومرة باسم الإشارة الذي هو للقريب (هذا) ولننظر إلى السياق ونتأمل فيه؛ لندرك قمة البلاغة ومنتهى الفصاحة التي عبر بها -ﷺ-، فعندما كان الأمر غريبًا مستبعدًا بعيدًا

عبر عنه بذلك وهو ما يتناسب مع الصفات المتنحية التي لا تحدث دائمًا، وإنما نادرًا ما نراها، وعندما كان الأمر متعلقًا بإثبات نسب هذا الولد لأبيه قال -ﷺ- ابنك هذا القريب منك الحبيب إليك الذي ما ينبغي لك أن تشك في أنه ابنك، فلا عجب إذًا من بلاغة رسولنا الكريم فهو كما وصفه القاضي عياض إذ قال:

" وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول، فقد كان محمد -ﷺ- من ذلك بالمحل الأفضل، والموضع الأعرف سلامة طبع وبراعة صوت، وفصاحة لفظ، وجزالة قول، وصحة معنى، وقلة تكلف، كان يخاطب كل أمة بلسانها، ويحاورها بلغتها، ويقنعها بلهجاتها" .

والتزم -ﷺ- بآداب الحوار وآلياته حيث ترك مساحة للطرف الآخر عن طريق الإجابة على الأسئلة حتى يتأتى الإقناع، فالحوار الذي أقامه رسول الله -ﷺ- كان حوارًا هادفًا مثمرًا نافعًا مفيدًا قادرًا على تأكيد المعنى وإدراك المتلقي له بعمق وتركيز واستجابة، وتمتع هذا الحوار بطرح اللغو فيه فلم يخض الرسول -ﷺ- في كلام غير مفيد، وبالموضوعية حيث التزم الرسول -ﷺ- بالموضوع الذي يتحاور فيه، وكذلك أيضًا بالوضوح فليس هناك كلمات ضبابية غامضة، ولا تعابير مطاطية فضفاضة؛ بل كلمات محددة وألفاظ دقيقة، كما أن لتعدد الاستفهام هنا دلالة وهي التدرج في الحجة فقد تناول الرسول -ﷺ- الموضوع نقطة نقطة وجزءًا جزءًا؛ لإقامة الحجة على كل جزء منه.

واستخدم (أنى) ؟ ولم يستخدم (كيف) ؟؛ لأنها أفادت هنا (من أين)وهذا هو الغرض الذي من أجله جاء السائل لرسول الله -ﷺ- فأنى إذا دخلت على الجملة الاسمية تعني من أين؟، وإذا دخلت على الجملة الفعلية تفيد

**كيف ثم هو لم يقل من أين ؟ لأنه مع ما فيها من الإطالة فيها تصريح، إلى جانب أن (أنى) فيها مد يشعر بغرابة الأمر وبعده.**

**وفي قوله (لك) التي تفيد الملكية والاختصاص كمال البلاغة وقوة الحجة والإقناع، فهو يقنعه بما هو قريب منه ملازم له مالك إياه لا بشيئ آخر هو للخيال أقرب وللمشاهدة أبعد.**

**ثم لننظر إلى رد رسول الله -ﷺ- إلى الرجل:( فلعل ابنك هذا نزعه عرق) لقد أجاب على الرجل بألفاظه نفسها ليكون أدعى لإقناعه كيف ذلك ؟ إذا كانت لعل مقبولة في جانب الرجل؛ لأنه ما زال في مرحلة شك فلماذا أجاب الرسول -ﷺ- بلعل التي تفيد الترجي مع أن الرسول -ﷺ- مقتنع تمامًا بأنه ابنه؟ لقد أراد رسول الله -ﷺ- ألا ينهي هذه القضية بخبر يقيني وقرار منه وإنما أجاب على الرجل بإجابته نفسها، وترك لعقله أن يفكر ويعمل؛ ليصل إلى القضية الحتمية والقرار النهائي وهو أن ابنه هذا نزعه عرق.**

**ولم يزد رسول الله -ﷺ- إلا قوله (ابنك هذا) وهذه الزيادة تحمل دلالات عدة زيادة في الإقناع ففي إضافة الابن إليه بقولك ابنك إثبات له أنه ابنه هو لا ابن أحد آخر وفي قوله: (هذا) لقربه منه فهو قطعة منه.**

**و (لعل) هنا أفادت الرجاء والطمع، وقد ذكر سيبويه ذلك المعنى وتبعه فيه المبرد، والطمع والرجاء لا يكون إلا لمرجو محبوب[1].**

---

١ ينظر الكتاب ١٤٨/٢ لسيبويه ت: عبد السلام هارون، الهيئة العامة المصرية للكتاب ط٢، ١٩٧٩مـ، وينظر المقتضب ١٠٨/٤لأبي العباس المبرد ت: محمد عبد الخالق عضيمة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية لجنة إحياء التراث، جمهورية مصر العربية ط٢، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩مـ

**وذكر المرادي: أن هذا المعنى هو الأشهر والأكثر، ومثل له بنحو: لعل الله يرحمنا[1] .**

**وبمثل قول المرادي قال ابن الحاجب من قبل[2].**

**وقال الزمخشري: (لعل) لتوقع مرجو، وتعبير الزمخشري بلفظ التوقع دليل على أن الترجي يكون في الأمر الممكن الوقوع لا مستحيل الوقوع، وقد سبق إلى هذا اللفظ المبرد واقتصر الزجاج على ذكر إفادتها الترجي مجردًا[3] .**

**وفي قوله: (فَلَعَلَّ ابْنَكَ هَذَا نَزَعَهُ) فيه تشبيه ضمني حيث شبه الغلام الذي خالف لون والديه بـ (الجمل) الذي خالف لونه سائر القطيع، ووجه الشبه اكتساب اللون من أحد الأصول البعيدة**

**وفي إسناد الفعل (نزع) إلى (عرق) استعارة تبعية في الفعل؛ حيث شبه الاكتساب بالنزع، ثم استعير النزع للاكتساب. أو هي استعارة مكنية في لفظ (عرق) حيث يشبه العرق بالكائن القوي الذي يأخذ الشيء بقوة.**

**لقد وظف الرسول -ﷺ- الصور المجازية لخدمة المعنى فقد صورت للمتلقي عمل الوراثة في صورة حسية، وساعد في ذلك تنكير (عرق)؛**

---

١ الجنى الداني في حروف المعاني لأبي القاسم المرادي ص ٥٧٩، ت: د/ فخري الدين قباوة، أ/ محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان ط١، ١٤١٣- ١٩٩٢مـ.

٢ الإيضاح في شرح المفصل لأبي عمرو عثمان بن الحاجب ٢/ ٢٠٠ت: موسى بناي العليلي وزارة الأوقاف والشئون الدينية، إحياء التراث الإسلامي، العراق .

٣ المفصل صـ٣٦٠.

لأنه ليس بالإمكان تحديد العرق الذي يكون سببًا في اختلاف اللون، وهذا ما يتطابق مع الحقيقة العلمية.

لقد كان الحوار في هذا الحديث النبوي أسلوب راق من أساليب التعليم استطاع -ﷺ- من خلاله اكتشاف ما عند السائل من معلومات تفيده في إقناعه وذلك عندما سأله هل لك من إبل؟، ثم إنه استطاع من خلال الحوار أيضًا أن يصحح ما علق في ذهنه من فكر خاطئ واتهام باطل لزوجته إلى جانب أنه حث السائل من خلال هذا الحوار على إعمال ذهنه وتشغيل عقله للوصول إلى الصواب والحق، لقد كان الحوار بحق إيجابيًا في إقامة الحجة وإقناع السائل وتصحيح فكره.

وفي قوله: ( هل لك من إبل) دون (هل لك إبل)؛ لأن وجود (من) يدل على كثرة المسؤول عنه، ولو جاء خاليًا منه لصدق بواحد أو اثنين فيكون احتمال تعدد الألوان فيها بعيد، وقد دل على كثرة المسؤول عنه من جهة كونه مبنيًا لمحذوف والتقدير: هل لك قطيع من إبل؟ وجاء الحذف هنا مراعاة لذلك الموقف الذي لا يحتمل الإطالة، ثم إن (من) قد اختلف معناها في قوله: (هل فيها من أورق)؟ فقد جاءت هنا بمعنى بعض؛ إذ التقدير: هل فيها بعض أورق؟ والسؤال عن بعض الأروق هو لب القضية ومحور الحدث فهو الدليل والبرهان لإزالة الشك وإحلال اليقين.

الحوار في هذا الحديث النبوي الشريف وسيلة من وسائل الإقناع بالفكر؛ حيث وظفه الرسول -ﷺ- توظيفًا رائعًا؛ وذلك لأن الحوار ضرب من الأدب عرف منذ الجاهلية في خطب المفاخرات والمنافرات، ويشهد تاريخ العرب أنهم توسلوا بهذا الفن الأدبي إلى مآربهم؛ لكثرة خصوماتهم ومفاخرهم وتنازعهم على الشرف، فكان الرجلان إذا تنازعا في صفات الشرف

**والصدارة تنافرا إلى واحد أو أكثر من حكماءالعرب يقضي بينهما بمن أحق بالصفات الكريمة، والمآثر المشهورة التي ترجح كفة غريمه، ولهذا السبب كان يقول لغريمه أنا أعز منك نفرًا، ويظل يذكر الدليل إثر الدليل وكذلك يفعل غريمه إلى أن يحكم القاضي الذي اختاره لواحد منهما.**

**وإذا نظرنا في باقي الأحاديث فإننا نجدها قد ناقشت مسألتين**

**الأولى: التذكير والتأنيث.**

**الثانية: الشبه، وذكرت الأحاديث بشأن هاتين المسألتين الألفاظ التالية: العلو، السبق، النزع.**

**فأما لفظة (علا) فلها معنيان: المعنى الأول: العلو المادي، أي مني فوق مني، والمعنى الثاني: العلو، بمعنى: الغلبة والقهر.**

**قال ابن فارس: العين واللام والحرف المعتل ياء كان أو واوًا أو ألفًا أصل واحد يدل على السمو والارتفاع لا يشذ عنه شيء "[1]، ويقول الرازي: علاه: غلبه، وعلاه بالسيف ضربه [2]، كما قال الراغب الأصفهاني أيضًا في معنى كلمة عَلا:العلوُ: ضد السفل، و العلوي و السفلي المنسوب إليهما، و العلو: الارتفاع وقد علا يعلو علوًا وهو عال، وعَلي يَعَلي علا فهو علي، فعلا بالفتح في الأمكنة و الأجسام أكثر.[3]**

**وأما السبق فله معنيان:**

**.المعنى الأول: الغلبة والقهر. المعنى الثاني: التقدم الزماني أو المكاني.**

---

١ ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن زكريا، معجم مقاييس اللغة

٢ الرازي، محمد بن أبي بكر عبد القادر، مختار الصحاح

٣ الراغب الأصفهاني، أبي القاسم الحسين بن محمد بن الفضل، المفردات في غريب القرآن.

**قال ابن فارس: السين والباء و القاف أصل واحد صحيح يدل على التقدم " يقال سبق يسبق سبقًا[1].**

**وقال ابن منظور: السبق: القدمة في الجري وفي كل شيء[2]، وذكر الراغب الأصفهاني أيضًا: سبق أصل السبق التقدم في السير و الاستباق التسابق[3]، ويقول رشيد رضا: والاستباق تكلف السبق، وهو الغرض من المسابقة و التسابق، بصفة المشاركة التي يقصد بها الغلب، وقد يقصد لذاته أو لغرض آخر في السبق، ومنه { فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} المائدة: ٤٨، فهذا يقصد به السبق لذاته لا للغلب كما قال الراغب الأ صفهاني أيضًا في معني كلمة علا العلوُ ضد السفل[4] .**

**نزع: نزع إلى أهله نزوعًا: حن واشتاق، وإلى أبيه: أشبهه، ويقال: نزعه عرق: أشبه أصله.[5]**

**البلاغة في هذه الأحاديث:**

**هذه الأحاديث يعلن فيها الرّسول الكريم -ﷺ- بكلّ موضوعيّة نظريّة الطّفرات أو النّزعات، وأفضل في بحثي استعمال هذه الصّيغة اقتداء بالسّنة النبويّة الّتي تحدثت عن الموروث الجينومي - أي مجموع**

---

١ ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن زكريا، معجم مقاييس اللغة

٢ ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي بن أحمد، لسان العرب.

٣ الراغب الأصفهاني، أبي القاسم الحسين بن محمد بن الفضل، المفردات في غريب القرآن

٤رضا، محمد رشيد، تفسير المنار

٥ المعجم الوسيط مادة نزع ص ٩٥٣

المورّثات الّتي تقنّن صفات الإنسان وفي ذلك إعجاز علمي قد أثبته العلم الحديث اليوم.

وتعبير النبي -ﷺ- عن هذا الأمر بالعلو تعبير دقيق مدهش؛ حيث يعبر بكل دقة ووضوح عن الغلبة والقهر؛ لأن هذه الصفات إنما تثبت بالغلبة، فإذا غلبت هذه المورثات ظهرت خصائصها و آثارها في المولود، و بذلك يكون هذا العلو علوًا حقيقيًا و ليس معنويًا كما كان يعتقد من قبل.

إن اللفظة في الحديث النبوي الشريف أتت بوصفها بنية سياقية ذات قيمة دلالية داخل نسيج النص النبوي وكان وجودها ضروريًا في ذلك الموضع، ففي ضوء المكتشفات الحديثة لخصائص الأمشاج الكهربائية، يكون العلو المقصود العلو الكهربائي وهو علو حقيقي و ليس علوًا معنويًا، ولتوضيح ذلك نقول: إنه يوجد نوعان من الشحنات الكهربائية هما: الشحنة الموجبة، ويرمز لها بالرمز(+) وتعني: نقصان عدد كبير من الإلكترونات في الجسم، و الشحنة السالبة يرمز لها بالرمز (−) وتعني: تجمع عدد كبير من الإلكترونات في الجسم، وكما نعلم تتجاذب الشحنات ذات الطبيعة المختلفة، فإذا اقترب جسمان مشحونان بشحنات ذات طبيعة مختلفة، وكانت للجسمان حرية الحركة، فإن كلا منهما يجذب الآخر، وإذا كان أحد الجسمين بروتونًا، والآخر إلكترونًا، فإن البروتون هو الذي يجذب إليه الإلكترون، عند اقترابهما؛ لأن كتلة البروتون أكبر بكثير من كتلة الإلكترون، وأيضًا تتنافر الشحنات ذات الطبيعة المتماثلة: أي أن شحنتين موجبتين أو شحنتين سالبتين، إذا اقتربتا لمسافة معينة، تظهر بينهما قوى ميكانيكية، تعمل على دفع الشحنة ذات الكتلة الأقل، بعيدًا عن الشحنة ذات الكتلة الأكبر، بناء على هذه الحقائق الكهربائية، تكون

الشحنة الموجبة هي الأعلى كهربائيًا؛ نظرًا لقدرتها على جذب الإلكترونات من الشحنة السالبة.

وبتطبيق القواعد السابقة على الخصائص الكهربائية للبييضة و للحيوان المنوي عند عملية التخصيب، نجد أنه عندما تكون البيضة سالبة الشحنة فإنها تجذب إليها الحيوان المنوي الحامل للصبغي (الذي يحمل شحنة موجبة) وينتج "طفل ذكر"، وبما أن "الشحنة الموجبة" هي الأعلى حسب قواعد الطبيعة يكون مني الرجل هو الأعلى و بذلك يكون علو مني الرجل سببًا في إنجاب "طفل ذكر"، وهذا يطابق ما أوضحه الحديث النبوي بشكل مذهل " فإذا اجتمعا، فعلا مني الرجل مني المرأة: أذكرا بإذن الله "، و أما إذا كانت البييضة موجبة الشحنة فإنها تجذب إليها الحيوان المنوي الحامل للصبغيx الذي يحمل شحنة سالبة) و ينتج "طفل أنثى" [1] ، وهذا ما أوضحه أيضًا الحديث النبوي " وإذا علا مني المرأة مني الرجل أنثا بإذن الله "، أي هناك دور مشترك للرجل والمرأة في تحديد جنس الطفل، ومن خلال العرض السابق يتضح صدق حديث النبي -ﷺ-، الذي يقدم إعجازًا علميا جديدًا يضاف إلى ما سبق من معجزات نبوية و التي لابد أن تكون وحيًا من الله العليم الذي يعلم كل شيء، ما نعلم وما لا نعلم.

وفي قوله -ﷺ- : (دَعِيهَا) دعوة للحوار والتشجيع عليه فهو وسيلة مثلى للتعلم وتجنب سوء الفهم، وفن من فنون التواصل الإنساني وقد جعله صلوات الله وسلامه عليه أساسًا لنشر دعوته، فنجده حاور رجال قريش

١ المسؤولية المشتركة للرجل والمرأة في تحديد نوع الجنين بحث مقدم للمؤتمر الثامن للإعجاز العلمي في القرآن والسنة أ.د جمال حامد حسانين.

ونسائها، حاور الأفراد كما حاور الجماعات، وحاور الكافر كما حاور المؤمن.

وهذه الأحاديث تؤكد أهمية سؤال أهل العلم عما نجهله وضرورة اللقاء المباشر بهم والحوار الفعال معهم؛ لإزالة الغموض والشك والفهم الخاطئ، ونحن اليوم في حاجة شديدة ملحة إلى تفعيل ذلك اللون الرائع من الحوار تأسيًا برسول الله -ﷺ-، وفتح آفاق الحوار مع من يعادوننا، ويجهلون ديننا، ويتهجمون على نبينا، وينكرون شريعتنا، فذلك أبلغ من نشر المقالات، وإصدار البيانات، وإلقاء الكلمات؛ لأن آثار اللقاء المباشر أكثر تأثيرًا وأشد إقناعًا خاصة ونحن على الحق.

إن الاستفهام في قوله -ﷺ- خرج عن معناه الحقيقي؛ ليؤكد هذه الحقيقة العلمية وهي أن الشبه متحقق من قِبَل هذا الأمر، فالاستفهام هنا معناه النفي أي: أنه لا يكون الشبه إلا من قبل ذلك، والرسول -ﷺ- إذ عدل بالأسلوب من الخبر إلى الإنشاء؛ لأنه أراد الإقرار التام من الجميع بهذه الحقيقة فلا مجال لإنكارها؛ لأن المخاطب مشترك في تقريرها، والرسول -ﷺ- قد سبق علماء العصور بهذا الإخبار العلمي الدقيق الجازم الذي كشف فيه عن تلك الأسرار التي تحدث في الخلية إنه -ﷺ- واضع ومؤسس علم الوراثة منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان.

إن هذه الحقيقة العلمية لا يختص بها عصر بعينه ولا زمن محدد، بل هي متجددة عبر العصور؛ ولذا كانت الدقة في اختيار الفعل المضارع( يكون) دون الفعل الماضي(كان) مما ساعد على دقة المعلومة، فلكل كلمة ولكل صيغة في لغتنا هدف ودلالة وسر عن غيرها من الكلمات، فالكلمات العربية متفردة بما تملكه من خصائص ذاتية تبرز طاقات هائلة ومستويات مختلفة للآداء، إن الجمال الفني هنا قائم على معايير

الانسجام والتلاحم الدقيق في التركيب واختيار الصيغة الدقيقة مع الحقيقة العلمية، فما يؤديه الفعل الماضي لا يؤديه المضارع وهكذا.

ثم إن القصر في قوله: "وَهَلْ يَكُونُ الشَّبَهُ إِلاَّ مِنْ قِبَلِ ذَلِكِ "جاء لتأكيد هذه الحقيقة التي تواتر على تأكيدها أكثر من مؤكد؛ لأنها حقيقة علمية لا يستوعبها ذلك العصر، ولا تحتملها تلك البيئة، إنه سياق تزاحمت فيه المؤكدات، وكأن الرسول -ﷺ- بهذه المؤكدات يهيئ العقل، ويجعله مستعدًا لتقبل هذه الحقيقة الغريبة التي سيعرضها في صورة علمية دقيقة حاسمة قاطعة:

"إِذَا عَلاَ مَاؤُهَا مَاءَ الرَّجُلِ أَشْبَهَ الْوَلَدُ أَخْوَالَهُ وَإِذَا عَلاَ مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَهَا أَشْبَهَ أَعْمَامَهُ".

إن تقطيع هاتين الجملتين بهذا الشكل المتوازن، وبهذه الهندسة المتلائمة، وبتلك الموسيقى المتساوية، وانتقاء تلك الكلمات التي تكررت عمل بلاغي راقٍ تقتضيه حالة الإعلان عن تلك الحقيقة العلمية وتقتضيه حالة النفس السائلة وحركة العقل، فالحقيقة العلمية تقتضي التعبير بإذا التي تفيد القطع واليقين ويدعمها ويؤيدها التعبير بالماضي( علا وأشبه)، ويساندها التكرار الذي يدل على أن العلو هو المعيار والميزان في الجهتين، وأن الماء هو المادة المتشابهة بين الجنسين، وأن الشبه هو الذي نبحث عن حقيقته بين النوعين.

والذي يلفت النظر هنا أن (المرأة) عندما كُررت جاء تكرارها بالضمير الغائب (مَاؤُهَا – مَاءَهَا) لا بالاسم الظاهر بخلاف الكلمات الأخرى التي تم تكرارها في هذا السياق؛ وكأنه أراد الستر للمرأة في مثل هذه العلاقة، وكأني به صلوات الله وسلامه عليه يعلمنا الأسلوب الأساسي في التحدث عن المرأة ومعها، خاصة والمرأة ماثلة أمامه، سائلة إياه مباشرة.

وفي حديث آخر لم تكن المرأة أمامه -ﷺ- ولم يكن محاورًا لها ولا مجيبًا لأسئلتها نجده قد ذكرها صراحة في مقابل الرجل لتأكيد تلك المسؤولية المشتركة للرجل والمرأة في تحديد نوع الجنين فقال:

"فَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ نَزَعَ الْوَلَدَ وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الْمَرْأَةِ مَاءَ الرَّجُلِ نَزَعَتْ الْوَلَدَ "

إنه أسلوب علمي غلب عليه الطابع العقلي، واستخدام المصطلحات العلمية، واستعمال التراكيب المباشرة، والألفاظ ذات المدلول الواحد، دون تنميق وخيال، أسلوب سهل واضح في كلماته ومعطياته، فلا يوجد في هذا السياق كلمة غريبة أو غامضة، كما أنه أسلوب مؤكد بعدة مؤكدات بـ(إذا) والفعل الماضي، وقد جاءت فيه الجملة الثانية مؤكدة للجملة الأولى وداعمة لها.

إن الحديث النبوي الشريف عندما أراد التحدث عن قضية الشبه جاء بـ "ماء الرجل" و "ماء المرأة"، وعندما أراد التحدث عن قضية التذكير والتأنيث جاء بـ"مني الرجل" و "مني المرأة"، فهل هناك فرق بين الماء والمني، وهل الماء أعم من المني خاصة ونحن نعلم فى عصر العلم الحالى أنه لا دخل للماء فى خلق النطفة، وإنما فى الأمشاج الموجودة فى الماء فيكون على هذا ( المني ) هو الحيوانات المنوية فى ماء الرجل والبويضات فى ماء المرأة.إن هذه المغايرة في اللفظين تسترعي الانتباه فإن وراءها معنى دقيق، وعلم لطيف ينبغي التنقيب عنه والبحث وراءه.

إنني أدعو علماء الطب -خاصة المتخصصين في هذا المجال من أساتذة طب النساء والتوليد وطب الوراثة- لدراسة هذا الموضوع في ضوء معطيات الحديث النبوي الشريف بتوجيهاته البلاغية، فقد تنفتح لهم أبواب وتكشف لهم كشوفات، وهذا معلم من معالم البحث التي ينبغي أن يدرسها

العلماء المسلمون المختصون في هذا الفرع من العلم، خاصة وأنه كلام المصطفى -ﷺ- الذي لا ينطق عن الهوى، والذي لا يقول إلا حقًا، فهذا حافز كبير للعلماء المختصين في هذا الباب لدراسته؛ وذلك لأن أهل الطب المعاصرين لم يستقروا على أمر فيما بينهم في هذا الخصوص.

"مَاءُ الرَّجُلِ أَبْيَضُ، وَمَاءُ الْمَرْأَةِ أَصْفَرُ، فَإِذَا اجْتَمَعَا، فَعَلَا مَنِيُّ الرَّجُلِ مَنِيَّ الْمَرْأَةِ، أَذْكَرَا بِإِذْنِ اللهِ، وَإِذَا عَلَا مَنِيُّ الْمَرْأَةِ مَنِيَّ الرَّجُلِ، آنَثَا بِإِذْنِ اللهِ ».

إن هذا الحديث انفرد عن باقي الأحاديث الواردة في هذا الشأن فهو الوحيد الذي تعرض لقضية التذكير والتأنيث أي: تحديد جنس الجنين، وأشار بوضوح تام إلى أن تحديد نوع الجنين، ذكرًا كان أو أنثى، يكون بمشاركة الرجل والمرأة معًا، و ليس بأحدهما فقط. وتحديد جنس الجنين من القضايا التي شغلت أذهان البشر منذ قديم الزمان، ليس فقط على مستوى العامة و لكن على مستوى العلماء والباحثين، ففي البداية كانت المرأة تتهم بأنها هي المسؤولة عن تحديد جنس الطفل، وبعد تقدم العلم واكتشاف وجود نوعين من الحيوانات المنوية، انتقلت المسؤولية إلى الرجل فقط.

ولقد ثار الجدل كثيرًا حول هذا الحديث على مر الزمان بين العلماء والفقهاء من جهة، وبين الفقهاء أنفسهم سابقين ومعاصرين، فلقد شكك البعض في صحة الحديث، وافترض الاشتباه على الراوي، وأن المقصود الشبه وليس الذكورة والأنوثة، و البعض الآخر لإيمانه بصدق الحديث وثبوته عن رسول الله -ﷺ-، حاولوا التوفيق بينه و بين الأحاديث الواردة عن الشبه، ومحاولة إيجاد علاقة بين العلو والسبق، كلٍ على قدر اجتهاده في ضوء المتاح من العلوم و المعرفة لديهم في ذلك الوقت، ولقد كان هذا الجدل سببًا للطعن في السنة المطهرة من أعداء الدين والمضللين

وبالرغم من تيقننا من أن الحديث لا مطعن فيه، وثقتنا بأن سيدنا "محمد -ﷺ-" لا ينطق عن الهوى، إلا أن العلم لم يتمكن من تزويدنا بأدلة مادية تجعلنا قادرين على الرد على هؤلاء الملحدين و المشككين، وأخيرًا وبعد مرور ما يقرب من ألف وخمسمائة سنة، يظهر الحق و يثبت العلم أن الرجل والمرأة يشتركان في تحديد جنس الطفل، وذلك اعتمادًا على خصائص غير مرئية وهي الشحنة الكهربية للأمشاج، وأن نوع الجنين يتبع نوع الوالد الذي يكون عناصر منيه أعلى، مصدقًا لما أخبر به نبينا العظيم منذ مئات السنين .

وأخيرًا، بعد أن ظهر لنا جليًا الأسباب التي تعمل على ترجيح نوع على آخر، فإننا نقر بأن ذلك كله معلق بمشيئة الله سبحانه وتعالى وحده، الذي خلق الأسباب وقادر على الخلق بالأسباب وبدونها، عز في علاه، قال تعالى: :

("لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ *أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ " ) الشورى ٤٩:٥٠

ومن ذلك كله يظهر لنا أن رسول الله -ﷺ- قد سبق علماء العصور بهذا الإخبار العلمي الدقيق الذي كشف فيه عن تلك الأسرار التي تحدث في الخلية إنه -ﷺ- واضع ومؤسس علم الوراثة منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان، فقد سبق مندل الذي صنف على أنه أول من وضع القوانين لعلم الوراثة، في العصر الحديث وتحدث عن تشابه و اختلاف المخلوقات، ثم عن توارث الصّفات.

لقد اتصف أسلوب هذه الأحاديث بدقة التعبير، وترتيب الأفكار، وسرعة الوصول إلى عقل القارئ، والابتعاد عن الخيال، إذ إن غايته مخاطبة العقل، وشرح الحقائق، وتفسير الغوامض بكلمات بسيطة ولكنها فصيحة، وجمل واضحة ولكنها دقيقة، إنها كلها أحاديث أعطت مدلولات وإشارات علمية خاطفة في مصطلحات عربية دقيقة عن شبه الجنين وجنسه من ماء والديه معًا.

إن قول رسول الله -ﷺ-:

"مَاءُ الرَّجُلِ أَبْيَضُ، وَمَاءُ الْمَرْأَةِ أَصْفَرُ، فَإِذَا اجْتَمَعَا، فَعَلَا مَنِيُّ الرَّجُلِ مَنِيَّ الْمَرْأَةِ، أَذْكَرَا بِإِذْنِ اللهِ، وَإِذَا عَلَا مَنِيُّ الْمَرْأَةِ مَنِيَّ الرَّجُلِ، آنَثَا بِإِذْنِ الله "

تضمن حقيقة علمية قبل تقدم العلم، فقد كان السائد أن مسؤولية ولادة طفل ذكر أو أنثي تتحملها المرأة وحدها، ولا يوجد أي دور للرجل في تحديد جنس الطفل، و مع تطور العلوم و تقدم وسائل البحث العلمي واكتشاف نوعين من الحيوانات المنوية، هما النوع الحامل للصبغي والنوع الحامل للصبغي، ومنذ ذلك الاكتشاف وعلماء الأحياء يعتبرون أن الذكر هو المسؤول عن تحديد جنس الطفل ولا يوجد أي دور للمرأة في هذه العملية، وعلى العكس من ذلك كانت الأحاديث الشريفة التي قالها النبي -ﷺ- منذ القرن السابع الميلادي تنص بشكل واضح و صريح على أن تحديد نوع الجنين مسؤولية مشتركة بين الرجل والمرأة، وهذا الحديث الذي رواه ثوبان مولى رسول الله -ﷺ- يعبر بصدق عن اشتراك الرجل و المرأة

**في ذلك، والنص في الحديث "ماء الرجل أبيض، وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا، فعلا مني الرجل مني المرأة: أذكرا بإذن الله، وإذا علا مني المرأة مني الرجل أنثا بإذن الله "، أي أن علو ماء أحدهما يكون سببًا في اكتساب جنس من علا ماؤه، إن هذه الأحاديث النبوية الشريفة التي عالجت تلك القضية العلمية تميزت بالمساواة في التعبير بين المعنى واللفظ، فلا إيجاز ولا تطويل ولا تكرار، وقد دلت الألفاظ على الحقيقة العلمية بشكل مباشر، وبدقة وسهولة وبعد عن التكلف والإغراب، ولا مجال للمجازات والصور البيانية.**

**قال الدكتور محمد علي البار :" والخلاصة: أن عوامل الشبه لأحد الوالدين أو للأسلاف، أو بظهور صفات جديدة كما حدث للفزاري الذي جاءته امرأته بولد أسود دون أن يكون أحد والديه أسود، أمر بالغ التعقيد، وتعمل فيه الجينات بصورة خفية ومعقدة، وبعضها يتبع قوانين مندل حسب الصفة سائدة، أو متنحية، وبعضها لا يتبعها، وحتى تلك التي تعتبر خاضعة لقوانين الوراثة قد تختلف عن تلك القوانين، ويعتبر الجنين عندئذ كامل التعبير أو ناقص التعبير... ولا يزال العلم الحديث يجهل الكثير من الحقائق التي تحدد الشبه في الولد، ولا ندري إلى الآن ما هو دور السبق في ماء الرجل أو ماء المرأة في الشبه من الناحية العلمية، وحتى يتسع مدى العلم في هذا الباب فإننا نقبل الحديث الشريف بقلوب مطمئنة واثقة بصدق المصطفى صلوات الله عليه".[1]**

---

١ خلق الإنسان بين الطب والقرآن ص١٦٤ الدار السعودية للنشر والتوزيع – جدة الطبعة الثامنة١٤١٢ - ١٩٩١ ١ خلق الإنسان بين الطب والقرآن، د/ محمد بن علي البار، ص١٤٩.

# المبحث الثاني
# الصفات الوراثية في الإنسان
# بين الإعجاز العلمي والبيان النبوي

**قال رسول الله -ﷺ-:**

**"اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا تَحُولُ بِهِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ، وَمِنَ الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مَصَائِبَ الدُّنْيَا، اللَّهُمَّ مَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا، وَأَبْصَارِنَا، وَقُوَّاتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا، وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا، وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمَنَا، وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا، وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا، وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا، وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا، وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَرْحَمُنَا"[1]**

**هذه الدعوة جامعةٌ لأبواب الخير والسعادة في الدنيا والآخرة، فقد جمعت من مقاصد ومطالب جليلة فيما يحتاجه العبد في دينه ودنياه، ومعاده؛ لهذا كان -ﷺ- نادرًا ما يقوم من مجلس إلا وقد رطب لسانه من هذه الكلمات، والدعوات الجميلة، فقد ذكر الترمذي وغيره عن خالد بن أبي عمران أن ابن عمران قال: "قلما كان رسول الله -ﷺ- يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه"[2]. فيحسن بالعبد أن يتعلم معانيها، ويعمل بمقاصدها ويكثر منها، خاصة في المجالس اتباعًا واقتداء بالنبي -ﷺ-.**

**قوله:" اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا تَحُولُ بِهِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ":**

**في هذه العبارة إيجاز رائع، وهو سمة من سمات الأدب الرفيع البعيد عن اللغة الاستهلاكية، وكما قال صاحب التلخيص:"باب رفيع المنزلة، شامخ**

---

١ الترمذي، كتاب الدعوات، باب حدثنا علي بن حجر، برقم ٣٥٠٢، والنسائي في الكبرى، ٦/ ١٠٦، والحاكم، ٥٢٨/١، وابن السني في عمل اليوم والليلة، برقم ٤٤٥، وصححه ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي، ١٦٨/٣، وصحيح الجامع، ٤٠٠/١

٢ سنن الترمذي، ٥ / ٥٢٨، برقم ٣٥٠٢

في الشرف، بل هو أنف البلاغة الذي تعطس منه، ونابها الذي تفتر عنه"[1].

والمعنى: اللَّهم اجعل لنا حظًّا ونصيبًا من خوفك المقترن بتعظيمك وإجلالك، ما يكون حاجزًا لنا ومانعًا من الوقوع في المعاصي والذنوب والآثام، وهذا فيه دلالةٌ على أن خشية اللَّه هي أعظم رادع وحاجز للإنسان عن الوقوع في الذنوب؛ ولهذا كان العلماء هم أكثر خشية للَّه لمعرفتهم وعلمهم باللَّه جل وعلا، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّه مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ فاطر٢٨، فكلما ازدادت معرفة العبد باللَّه بما له من الأسماء الحسنى والصفات العُلا، امتلأ القلب خشية، وأحجمت الأعضاء، والجوارح، جميعها عن ارتكاب المعاصي.

قوله: "وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ": ويسر لي من طاعتك ما يكون سببًا لنيل رضاك، وبلوغ جنتك العظيمة، التي أعددتها لعبادك المتقين، فالطاعة هنا سبب من أسباب دخول الجنة، وليست وسيلة مواصلات توصلنا إلى الجنة ولكنه -ﷺ- شبهها بوسيلة المواصلات وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو البلوغ في قوله(تُبَلِّغُنَا) وهذه المفردة في قمة البلاغة، في إيجازها ودلالتها، ولا عجب في ذلك فهو كلام المصطفى-ﷺ- الذي لا ينطق عن الهوى.

إن للمفردة في الحديث النبوي الشريف قيمة فنية رائعة، ووظيفة اختيرت لأجلها؛ لإيصال المعنى بشكل دقيق وشامل، فلفظة( تُبَلِّغُنَا) لها دلالة خاصة، ووضع دقيق، يميزها عن غيرها من الكلمات التي تؤدي نفس

---

١ التلخيص في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، تحقيق عبد الرحمن البرقوقي، ص٢٠٩، ط٢، دار الكتاب العربي، بيروت١٣٥٠هـ، ١٩٣٢م.

**المعنى الإجمالي من مثل (توصلنا) أو (تدخلنا) فقد جمعت إلى معنى الوصول معنى آخر وهو أنه ليس أي وصول، ولكنه وصول إلى الشيء المطلوب والمراد، [1] فالمترادفات ليست بمعنى واحد وإن اشتركت في الدلالة الإجمالية " المترادفات إنما تحسب مترادفات إذا ما أريد منها الدلالة الإجمالية للمعنى، وهذا ما يقتنع به أنصاف المتعلمين والعامة من المتكلمين وغيرهم ممن يكتفي من مخاطبه بإيصال خلاصة كلامه، ومجمل أفكاره، أما من علم من اللغة علمًا أورثه ذوقًا فيها، وملكة في معرفة أصولها وقواعدها، وسبر هذه الكلمات واستخرج ما بينها من فروق وخصائص فليست هذه الكلمات من المترادفات"[2].**

**ثم إن كلمة طاعة وإضافتها إلى الله –عز وجل– إيجاز جميل؛ إذ دلت الكلمة بهذه الهيئة على عموم ما يطاع به الله عز وجل، فتكون أكثر تعبيرًا عما تحمله من معان واسعة وشاملة.**

**وقد دل تقديم الجار والمجرور (به)على المفعول به (جَنَّتَكَ) على العناية والاهتمام بأمر الطاعة، كما دل التقديم أيضًا على القصر والاختصاص، أي: ما تبلغنا به لا بغيره جنتك ليكون معلومًا للجميع أن الإنسان مرهون بعمله وبما يقدمه من طاعة لربه، وأن عليه جزءًا ينبغي القيام به، وبعد ذلك تتبقى رحمة الله التي نرجوه أن يدخلنا بها الجنة.**

---

١ بلغ الشيء يبلغ بلوغ وبلاغًا وصل وانتهى وأبلغه إبلاغًا وتبليغًا، وتبلغ بالشيء وصل إلى مراده، والبلاغ ما يتبلغ ويتوصل به إلى الشيء المطلوب.لسان العرب مادة بلغ.

٢ من أسرار التعبير في القرآن صفاء الكلمة، عبد الفتاح لاشين، ص ٦٢، دار المريخ الرياض١٤٠٣هـ-١٩٨٣م

**قوله:" وَمِنَ الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مَصَائِبَ الدُّنْيَا": أي اقسم لنا من اليقين الذي هو أعلى الإيمان، وأكمله، كما قال عبد اللَّه بن مسعود رضى الله عنه اليقين: هو الإيمان كله [1]فهو إيمان لا شك فيه، ولا تردد، فالغائب عنده كالمشاهد من قوته، قال سفيان الثوري: لو أن اليقين وقع في القلب، لطار اشتياقًا إلى الجنة وهروبًا من النار[2].**

**فنسألك من اليقين ما يكون سببًا لتهوين المصائب والنوازل التي تحل علينا، واليقين كلما قوي في الإنسان كان ذلك فيه أدعى إلى الصبر على البلاء؛ لعلم الموقن أن كل ما أصابه إنما هو من عند اللَّه الحكيم العليم، فيرضى ويسلم ويكون بردًا وسلامًا على قلبه.**

**إننا إذا نظرنا في هذا الأسلوب، وتأملنا خصائص مفرداته، وعناصر تركيبه، وتابعنا حركة المعنى فيه، بهرنا هذا الإحكام الدقيق للصياغة، إن صياغة الحديث كله مبنية على أسلوب الإنشاء، فهو يتصدر الحديث فيكون أول ما يقرع سمع المتلقي فيسترعي انتباهه، ويمهد الكلام إلى الغرض المقصود؛ ليكون ذهن السامع موجهًا إليه، ويأتي في وسط الحديث فيقع من النفس موقع القلب من الجسد، ويأتي في ختام الحديث؛ ليكون آخر ما يقع في النفس ويقر فيها فيترك فيها أثرًا طيبًا.**

**وإذا نظرنا إلى ألفاظ الحديث وجدنا الأسلوب النبوي دقيقًا في اختيار ألفاظه، فإذا انتقى اللفظة مفردة كان ذلك لسبب وسر بلاغي، وإذا اختارها جمعًا فلغرض أسمى وأعلى، إنه قد زاوج في هذا الحديث بين صيغة المفرد**

---

١ البخاري، كتاب الإيمان، باب الإيمان وقول النبي -ﷺ- (بني الإسلام على خمس))، والطبراني في الكبير، ١٠٤/٩، برقم ٨٥٤٠، والترمذي الحكيم في نوادر الأصول، ١/ ٧٠

٢ فتح الباري، ١/ ٦٣.

وصيغة الجمع، فاستخدم المفرد في جانب الله الذي هو جانب الخير (خشيتك –طاعتك–جنتك ) واستعمل الجمع في الجانب الآخر وهو جانب الشر (مَصَائِبَ– مَعَاصِيكَ) للدلالة على أن طريق الخير والحق واحد، وطريق الشر والباطل متعدد.

قوله:" اللَّهُمَّ مَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا، وَأَبْصَارِنَا، وَقُوَّاتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا: أي:أدم علينا السمع والبصر وسائر قوانا نتمتع بها في مدة حياتنا؛ لأنها الدلائل الموصلة إلى معرفتك وتوحيدك، من البراهين المأخوذة: إما من الآيات المنزلة وطريق ذلك السمع، أو من الآيات في الآفاق والأنفس، وطريق ذلك البصر، وفي تقديم السمع على البصر حكمة مقصودة، لأن أول ما يتكون من حواس الجنين السمع، وأول حاسة تبدأ بالعمل قبل الولادة السمع، فالجنين يتمكن من سماع ضربات قلب أمه وحركة أمعائها في الشهر الخامس، بينما يتأخر البصر لما بعد الولادة، والسمع الحاسة الوحيدة التي لا تتوقف بنوم الإنسان.

وقوله:" وَقُوَّاتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا" أي: متعنا بسائر قوانا من الحواس الظاهرة والباطنة، وكل أعضائنا البدنية، لقد سأل صلوات الله وسلامه عليه التمتع بكامل قوانا طول حياتنا إلى موتنا؛ لأن الضعف وسقوط القوة في الكبر يضرُّ الدين والدنيا مما لا يخفى.

وقوله: "وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا": واجعله الوارث منا: كناية عن الاستمرارية إلى آخر العمر، اجعل يا اللَّه تمتعنا بالحواس والقوى صحيحة وسليمة إلى أن نموت، وكأنها هي التي ترثنا.

قوله: (الْوَارِثَ مِنَّا): يحتمل معنيين: الأول: الباقي بعد تقدم عمرنا وضياعه؛ لأن وارث المرء هو من يبقى بعده، ومعنى بقائه دوامه إلى يوم الحاجة إليه، والثاني: الذي يرث ذكرنا فنذكر به بعد انقضاء الآجال

وانقطاع الأعمال، وهذا المعنى سؤال خليل الرحمن: "وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ"، وفي عصر تقدم العلم وتطور الطب والأجهزة الحديثة يحتمل معنى ثالث وهو ما كشفه علم الجينات والوراثة من أن المشيجة التي تحمل صفات الإنسان سواء أكانت قوية أو ضعيفة في البصر والسمع أو غيرهما هي بسبب تغلب صفة على صفة، فتغلب الصفة القوية التي ورثها الولد فإذا كانت قوية في البصر ورث بصرًا قويًّا وهكذا.

إن الرسول صلوات الله وسلامه عليه بعد أن توجه بالدعوة إلى الله أن يمتعه بالحواس من سمع وبصر، وبالقوة طوال حياته، لم يكتف بذلك وإنما جعل هذا التمتع ممتدًا إلى الورثة فقال: (مَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا، وَأَبْصَارِنَا، وَقُوَّاتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا)، وهذا الفهم كان من الصعب جدًا أن يفهم وقتئذٍ بهذا الشكل، لكنه فُهم فهمًا آخر يتناسب مع مقتضيات العصر حينئذٍ. إن أفعال الأمر هنا خرجت عن معناها الحقيقي الذي هو طلب الفعل إلى معاني مجازية فالمقصود منها الدعاء.

قوله: "وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمَنَا": أي وفقنا للأخذ بثأرنا ممن ظلمنا، دون أن نتعدَّى فنأخذ بالثأر من غير الظالم..

قوله:" وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا": تعميم بعد تخصيص أي اكتب لنا الظفر والفوز على من تعدَّى علينا بغير حق..

قوله:" وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا": أي: لا تُصيبنا بما ينقص ديننا ويذُهبه من اعتقاد سيئ، أو تقصير في الطاعات، أو فعل المحرمات، أو كتسليط الكفار، والمنافقين، والظلمة على أهل الدين والإيمان؛ لأن مصيبة الدين هي أعظم المصائب، التي لا تنجبر ولا يُعوِّض عنها، خلاف مصائب الدنيا..

قوله: وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا: أي: لا تجعل أكبر قصدنا وتعلقنا، وحزننا

لأجل الدنيا؛ فإن من كان أكبر همه الدنيا كان في معزل عن الآخرة، بل اجعله مصروفًا في عمل الآخرة، وفي هذا دليل على أن القليل من الهمّ لابُدَّ منه في الدنيا ويُرخص فيه.

قوله: "وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا" أي: لا تجعل أكثر علمنا وتفكيرنا في أحوال الدنيا كالكافرين.

قوله: وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَرْحَمُنَا: أي لا تجعلنا مغلوبين من الكفار، والظلمة، والفجرة، بتوليتهم علينا، فيكونوا سببًا لتعذيبنا في ديننا ودنيانا، ويجوز حمله على ملائكة العذاب في القبر، أو في النار، ولا مانع من إرادة الجميع، واللَّه تعالى أعلم[1]. ويحسن بالداعي أن يستحضر كل هذه المعاني حال دعائه.

إن توزيع الجمل الطلبية بهذا الشكل من الإتقان داخل هذا التركيب النبوي المبارك ليشع بفيض زاخر من الأسرار والمعاني إنها إلى جانب تحريكها لذهن المتلقي، وتنشيطها لعقله، أفادت الغرض التي جاءت لأجله وأصابت الهدف، فقد استهل النبي -ﷺ- كلامه بالجملة الطلبية التي خرجت عن معناها الحقيقي – وهو الأمر الذي يعني طلب إيجاد الفعل، ويكون من الأعلى إلى الأدنى في الرتبة – إلى معنى الدعاء؛ وذلك لأن البداية بالجملة الطلبية هي المناسبة للمقام؛ إذ المقام كله قائم على الدعاء والتذلل لله عز وجل.

* * *

١ الفتوحات الربانية على الأذكار النواوية ابن علان ٣/ ٢٧٠. ط. العلمية

# الفصل الثاني

# علم التشريح بين الإعجاز العلمي والبيان النبوي

# المبحث الأول
# القلب بين الإعجاز العلمي والبيان النبوي

**حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ حَدَّثَنَا زَكَرِيَّاءُ عَنْ عَامِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- يَقُولُ: " الْحَلَالُ بَيِّنٌ، وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ"[1] "**

**في هذا الحديث الشريف لمحة من لمحات الإعجاز العلمي في مجال الطب؛ إذ إن أي مرض يصيب القلب يؤثر على سائر الجسد؛ وذلك لأن القلب يقوم بضخ الدم الفاسد( غير المؤكسد) من البطين الأيمن إلى الرئتين حيث يُنَقَّى بأكسدته فيُطرد ثاني أكسيد الكربون، ويتحد الأكسجين بصبغة الدم ( الهيموجلوبين) الموجودة في كرات الدم الحمراء، ، ويعود الدم المؤكسد النقي من الرئتين إلى البطين الأيسر الذي يضخه عبر الأورطي ( الأبهر) إلى كل أجزاء الجسم، فيمد تريليونات الخلايا المكونة لجسم الإنسان بغاز الأكسجين والغذاء، وإذا اضطربت هذه الوظيفة أو اختلت وفسدت وضعفت هذه الدورة لأي مرض يصيب القلب فإن الأنسجة لا تجد حاجتها من الأكسجين، والأكسجين يستخدم لإحراق السكريات، والدهون؛ لإطلاق الطاقة، ولولاه لتوقفت حركة الخلايا والأنسجة، وأدى**

---

١ رواه البخاري في صحيحه كتاب الإيمان حديث رقم ٥٠، رواه مسلم في صحيحه كتاب المساقاة حديث رقم ٢٩٩٦، رواه ابن ماجه في سننه كتاب الفتن حديث رقم ٣٩٧٤ أيضًا رواه ابن ماجه في سننه كتاب الفتن حديث رقم ٣٩٧٤: أيضًا رواه أحمد في مسنده حديث رقم، ١٧٦٤٩ رواه الدارمي في سننه في كتاب البيوع حديث رقم ٢٤١٩

ذلك إلى موتها وهلاكها، ففساد هذه المضخة الموضوعة في الجانب الأيسر من القفص الصدري يؤدي إلى فساد الجسد كله.

ويعجب القارئ لحديث رسول الله -ﷺ- الذي يصف هذه الحقيقة بدقة فائقة قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان، وقبل أن يعرف الناس شيئًا عن الدورة الدموية في الإنسان، وعن دور القلب المهم في حياة الإنسان فيقول -ﷺ-: " ألا إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب " فصحة القلب وسقمه ترتبط بصحة وسقم القلب الحسي، وهي حقيقة طبية لم يدركها علم الإنسان المكتسب حتى قام ابن النفيس باكتشاف الدورة الدموية الصغرى في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، وظلت فكرته مطمورة منسية لأكثر من ثلاثة قرون حين حاول بعض الغربيين نسبتها لأنفسهم فأحيوها، وطوروها، وأضافوا إليها، وأصبح من الثابت علميًا أن القلب إذا صلح استقامت الدورة الدموية وصلح الجسد كله، وإذا فسد القلب فسد الجسد كله.

وهنا نقول: إن هذا الكلام للنبي -ﷺ- ليس من خبرته ولا من ثقافته ولا من معطيات عصره، ونتساءل: من علَّم هذا النبي الأمي ذلك غيرُ الله الخالق ؟ ومن كان يستطيع في الجزيرة العربية أن يلم بالدورة الدموية في جسم الإنسان ودور القلب فيها قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان لو لم يكن مصدر ذلك وحي السماء؟ وما الذي كان يضطر سيدنا محمدًا -ﷺ- إلى الخوض في مثل هذه الأمور الغيبية في زمانه لو لم يكن واثقًا من صحة المعلومة الموحى بها إليه، وواثقًا من مصدرها؟..

هذا بالنسبة للقلب العضوي، تلك العضلة الكمثرية الشكل الموجودة في القفص الصدري، والتي لا يزيد حجمها عن حجم قبضة اليد، ولا يزيد

وزنها في الفرد البالغ عن ثلث كيلو جرام، وتقوم بحوالي سبعين نبضة في الدقيقة . أي حوالي مائة ألف نبضة في اليوم الواحد . لتضخ خمسة لترات من الدم في كل دقيقة . ٧٢٠٠ لترًا في اليوم الواحد . عبر شبكة معقدة من الشرايين والأوردة والشعيرات الدموية يبلغ طولها آلاف الكيلو مترات؛ لتوصل الدم المؤكسد إلى كل خلية حية في الجسم، وتنزع منها الدم غير المؤكسد.

ومعروف لنا اليوم أنه طالما كان القلب صالحًا استقامت الدورة الدموية، ونالت كل خلية حية في الجسم حظها من الدم الذي يحمل لها الغذاء والأوكسجين، وبه يتم احتراق المواد الغذائية وانطلاق الطاقة، وإذا فسد القلب اختلت الدورة الدموية، واختل وصول الغذاء والأوكسجين إلى خلايا الجسم فيفسد.

ولكن للقلب في كتاب الله وفي سنة رسوله -ﷺ- وفي مفاهيم كثير من الناس مدلول غير تلك الكتلة من اللحم القائمة في القفص الصدري والتي تضخ الدم إلى كافة خلايا الجسم، وهو مدلول يتعلق بالعواطف والمفاهيم، والأفكار والعقائد والفهم، وركائز الأخلاق وضوابط السلوك، وهي قضايا ليس مقرها القلب العضلي وإن ارتبطت به بصورة لم يدركها الإنسان بعد، ويراه المفكرون من أمثال الإمام الغزالي في كيان معنوي، أو لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب العضوي تعلق لا تدرك كنهه، ويرى الغزالي أن هذا القلب المعنوي هو حقيقة الإنسان، وهو المخاطب والمعاقب، والمعاتب، والمطالب...، والقلب المعنوي أو اللطيفة الربانية مرتبطة بمعنى الروح وهو سر مغلق.

وبهذا المعنى أيضًا نرى لمحة إعجازية في حديث رسول الله -ﷺ- الذي نحن بصدده، فإذا صلح مركز العواطف والمفاهيم والأفكار والعقائد وركائز

الأخلاق وضوابط السلوك، إذا صلحت حقيقة الإنسان المدرك العالم العارف، صلح أمره كله، وإذا فسدت فسد أمره كله..

وهنا تتضح لمحة من لمحات الإعجاز في هذا الحديث النبوي الشريف إذا أخذ على جانبه المادي العضوي الملموس وإذا أخذ على جانبه المعنوي الروحاني الغيبي فإننا نجده صحيحًا دقيقًا شاملًا؛ فالقلب بمدلوله المادي هو قوام حياة الجسد، إذا صلح صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله، والقلب بمدلوله المعنوي قوام العواطف والعقائد، والمفاهيم والأفكار، وركائز الأخلاق وضوابط السلوك، فإذا صلح صلحت كل هذه الزوايا، وبصلاحها ينصلح الجسد كله.

وهنا أيضًا يتكرر السؤال: من الذي علَّم هذا النبي الأمي كل هذه الحقائق غير الله الخالق؟وما الذي كان يضطره إلى الخوض في مثل هذه القضايا الغيبية لو لم يكن واثقًا من مصادره، مؤيدًا من قبل خالقه الذي يعلم بعلمه اللامحدود أن الإنسان سيصل في يوم من الأيام إلى إدراك شيء من تلك الحقائق فتكون هذه الإشارات العلمية إلى عدد من حقائق الأنفس شهادة صدق على نبوة هذا النبي الخاتم والرسول الخاتم -ﷺ- حتى لا يبقى للناس على الله حجة من بعده؟.

في قوله -ﷺ-: " الْحَلَالُ بَيِّنٌ، وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ " إيجاز قصر، فمع ما فيه من الاختصار إلا أنه واسع الدلالة غزير المعنى.

فالحلال والحرام في كل شيء من طعام وشراب ولباس وكلام وأفعال إلى غير ذلك مما هو قائم في دنيا الناس، ومما يضيق المقام عن ذكره وسرده، قال الإمام العيني " أجمع العلماء على عظم هذا الحديث، وأنه أحد الأحاديث التي عليها مدار الإسلام، قالت جماعة هو ثلث الإسلام، وإن الإسلام يدور عليها، وعلى حديث الأعمال بالنيات وحديث من

حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه وقال أبو داود يدور على أربعة أحاديث هذه الثلاثة وحديث لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسهوحكى العيني عن ابن العربي أنه قال: " يمكن أن ينتزع من هذا الحديث وحده جميع الأحكام". وقال القرطبي: " لأنه اشتمل على التفصيل بين الحلال وغيره وعلى تعلق جميع الأعمال بالقلب "[1].

وقد أعاد ذكر المسند (بَيِّنٌ) مع أنه كان من الممكن أن يكتفي بذكره أولًا فيقول الحلال بين والحرام، أو أن يجمع بين الحلال والحرام ثم يحكم عليهما فيقول: الحلال والحرام بينان، وذلك لأنه أراد التركيز على كل واحد منهما وتخصيصه بالبيان والوضوح، وأن بيان الحلال متميز عن بيان الحرام؛ فلذا لم يرد جمع البيانين في واحد فهما مختلفان، ولم يرد الحكم عليهما بحكم واحد.

وكيف يجتمعان في حكم واحد والحلال والحرام متضادان مختلفان؛ لبيان ما ينبغي فعله إزاء كل واحد منهما.

إن مثل هذا الأسلوب يبعث في النفس التفكير والتأمل، ويثير الإعجاب، ويبعث على الجمال، كما أن في تكرار كلمة (بَيِّنٌ) لطيفة أخرى غير ما ذكر، وكأنه أراد ألا يكتفي بظهور الحلال والحرام ووضوحهما، فأراد أن يظهر فوق بيانهما ووضوحهما بيان آخر تمثل في إعادة اللفظة مرة أخرى، وكأنه إعلان صريح واضح مطابق لما عليه حال الحلال والحرام من الوضوح والبيان.

وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ: في هذا الحديث حسن تقسيم؛ إذ لا تخرج حياة إنسان عن هذه الطرق الثلاث وهي الحلال والحرام وما بينهما، ومع ما فيها من

---

١ عمدة القارئ ج١ ص ٣٤٣.

حسن التقسيم فيها من جمال العرض والترتيب فكل جملة قد أدت إلى الجملة التي بعدها، فالحلال أدى للحرام، وهما معًا أخرجا الجملة الثالثة (وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ ).

لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ: أي أن هناك قلة من الناس تعلمها وهذا يدل دلالة واضحة على أهمية الرجوع إلى أهل العلم والاختصاص" فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ" "وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا".

فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ: هنا وضع للظاهر موضع الضمير؛ لأنه لما قال وبينهما مشبهات كان الأصل أن يقول: فمن اتقاها، لكنه عدل عن هذا الأصل؛ لأهمية الحذر من تلك المشبهات؛ ولذا أتى معها بلفظ التقوى الذي يستخدم في الأمور الجليلة الأثر العظيمة الخطر، ولأهمية هذا الموضوع وعظم خطره يستمر السياق كله معلنًا أسلوب المبالغة رافعًا راية العدول عن الأصل إلى غيره ففي قوله:

اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ: الاستبراء بالألف والسين والتاء هو طلب البراءة، وفي هذا مبالغة في طلب البراءة للدين من النقص، والعرض من العيب والطعن فيه، تلك المبالغة التي كانت سمة هذا الحديث الشريف؛ لجلال الأمر وخطورته، ولذا عدل عن ( برأ )، ثم إن في استبرأ معنى آخر جميل وهو أن على الإنسان أن يأخذ بالأسباب ويتلمس الطريق الصحيح الشريف للوصول إلى غاية نبيلة، ويترك النتائج على الله، فهو يتقي الشبهات لا للحصول على البراءة وإنما هو مسوغ من مسوغات كثيرة للحصول عليها، وأن من يتوقى أمرًا فيه شر هو بداية الطريق للخير وليس كل الطريق.

لقد جمع الرسول -ﷺ- بين كلمتي الدين والعرض وكأن بينهما طباق كالذي بين الدنيا والآخرة ففي هاتين الكلمتين خيري الدنيا والآخرة، وفي هذا استكمال لبيان أهمية الموضوع الذي يتحدث فيه وهو اتقاء الشبهات ففي اتقائها تحصيل للخيرين، وحرص الرسول -ﷺ- على ذكر كلمة (العرض)؛ لأنها هي موضع المدح والذم في الإنسان، وقد رفع رسول الله -ﷺ- من شأن العرض فجمع بينه وبين الدين، وسوّى بينهما في ضرورة الحفاظ عليهما.

وَمَنْ وَقَعَ فِى الشُّبُهَاتِ: وقع في الحرام بحذف جواب الشرط وآثر هذا الحذف للإشعار بضرورة حذف الحرام من حياتنا وعدم ممارسته أو الوقوع فيه، فتوافق جمال حذف جواب الشرط في الكلام مع جمال حذف الحرام من حياتنا، وفي الوقت الذي حذف فيه جواب الشرط آثر وضع الظاهر موضع المضمر؛ إذ الأصل أن يقول: (ومن وقع فيها) وذلك من أجل تحقيق الهدف من هذا الخطاب وهو التشديد على عدم إتيان الشبهات فكان لا بد من المبالغة في ذلك وإظهار هذا الأمر بذكر لفظه لا بعودة الضمير إليه.والسياق كله مكسو بذلك اللون من التشديد والمبالغة فنراه يعبر عن إتيان الشبهات بالوقوع فيها إنه تصوير بليغ لحالة التدن والضعة والخسة والسقوط في الهاوية التي تكون من نصيب من يأتي الشبهات.

كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ: هنا إيجاز بالحذف أيضًا والتقدير: يرعى إبله أو غنمه وهو حذف للعموم.

وجاء بالفعل المضارع هنا ليدل على تجدد الرعي واستمراره وهذا هو المقصود لأن من يرعى بهذه الصورة لا بد وأن يقع في المحظور وهذا بخلاف ما لو عبر بالماضي.

وقد شبه النبي -ﷺ- حال الذي لا يتقي الشبهات فيقع في الحرام بحال الراعي الذي يرعى حول الحمى المحظور فتغلبه إبله، وهو تشبيه من واقع البيئة التي يعيشون فيها، فقد كان ملوك العرب وأمراؤهم يتوعدون من يرعى في مراعي مواشيهم بالعقوبة الشديدة، وكان من يحرص على السلامة يبتعد عنها خشية الوقوع فيها.

وهو تشبيه معقول بمحسوس حيث شبهت المحارم بالأرض التي يقوم صاحبها بحمايتها على أسلوب الاستعارة المكنية.

ثم هناك استعارة مكنية أخرى في تشبيه الشبهات بالهوة التي تنزلق فيها الأقدام، والأسلوب كله استعارة تمثيلية ووجه الشبه حصول العقوبة وتحققها للوقوع فيما يضر بسبب عدم أخذ الحيطة والحظر.

" أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِى أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ": جاء السياق كله مؤكدًا، فقد جاء بـ (ألا) التي هي للتنبيه وجذب السامع؛ لأن ما سيأتي بعدها أمر جليل ينبغي الالتفات إليه، وما سيلقيه عليهم قضية مهمة ينبغي الاهتمام بها؛ ولذا جاءت بعدها إن وزيادة في التعظيم والاهتمام جاء بـ(الحمى) نكرة وأضافها إلى لفظ الجلالة إشعارًا بالهيبة والعظمة؛ لأن الأصل في الحمى أنها حمى الملوك والعظماء التي لا يقربها أحد للخوف من أصحابها فهنا استعارة تصريحية أصلية شبهت فيها المحرمات التي حرمها الله بحمى الملوك.

وفي قوله: (في أرضه ) إشعار وتذكير للمخاطبين بأن هذه الأرض ملك لله فلا يحق لكم التعدي والتجاوز فيما لا تملكون وإذا كان ملوك الأرض لهم حمى مخصوص معلوم يخافهم الناس فلا يقربوها فتذكروا أن هذه الأرض كلها هي أرض الله وحماه فيها محارمه.

"أَلا وَإِنَّ فِى الْجَسَدِ مُضْغَةً": كررت(ألا) مرة ثالثة في السياق لمضاعفة

الانتباه وجاءت مقرونة بـ(إن) التي تؤكد هذا الخبر وتدلل على أنه خبر عظيم مهم، ذكره علم الطب الحديث فيما بعد من أن أي مرض يصيب القلب يؤثر دون ريب على سائر الجسد وخصوصًا فيما يتعلق بالدورة الدموية في الإنسان، ثم يستمر التأكيد فيقدم الجار والمجرور وما يحمله هذا التقديم من تأكيد على أهمية الجسد وأهمية إصلاحه والاعتناء به، والتأكيد بعد ذلك بـ(إذا) وبـ(كله)، إنه بيان أخباره كلها مؤكدة خارجة من أعظم قائد للبشرية ومعلم ومصلح لها وموجه لسلوكياتها.

إن الأسلوب مع ما حمله من كثرة أدوات التوكيد إلا أنه لم يكن جافًا جامدًا، لقد اشتمل على جذب المخاطب لهذا البيان بذلك التشويق الذي يصادف هوى وإقبالًا ومتعة لدى المتلقي تمثل التشويق في عدم التصريح بتلك المضغة إلا في نهاية الكلام؛ ليظل المخاطب في شوق لنهاية الكلام ومعرفة تلك المضغة.

(مُضْغَةً) في التعبير بهذه اللفظة دقة لا تضاهيها دقة ففيها دلائل نبوته في وقت ليس هناك مركز علمي في الأرض قادر على وصف تلك الحقيقة، ، إنه وصف دقيق لعضلة القلب فعلم التشريح يثبت أنها حقًا مضغة، ثم إن هذه الكلمة الدقيقة من رسول الله -ﷺ- تمنحنا قيمة كبيرة من قيم تربية الإنسان وهو أنه ينبغي علينا ألا ننظر إلى حجم الأشياء؛ بل إلى شدة تأثيرها وقوتها، فليس كل ما هو كبير أثره عظيم، ولا كل ما هو صغير حقير، كما تعلمنا الأناة وعدم الحكم بالظاهر وإنما التعمق في دواخل الأشياء والوقوف على حقيقتها فالعبرة بالجوهر لا بالمظهر.

وفي تقديم الجار والمجرور ( في الجسد) لكون الحديث خاصًا بالجسد ومنصبًا عليه، فهو عمود الكلام وعماد القضية التي يتحدث عنها الرسول -ﷺ- فالحديث كله يتحدث عن صيانة هذا الجسد والحفاظ عليه وحمايته

من الحرام ودفعه للحلال، وما كان حديث رسول الله -ﷺ- إلا من أجل الارتفاع بهذا الجسد إلى مستوى عال من الرقي المنشود له والدفع به نحو الفضيلة.

إن السياق كله يشير إلى أن الجسد هو المقصد الأسمى والهدف المنشود للصون؛ ولذا كان التقديم مهمًا هنا.

وقد جاءت كلمة مضغة منكرة للدلالة على قلتها وصغرها في الحجم وكبرها وعظمها في الأثر والفعل، إن التنكير هنا جاء تحقيرًا وتعظيمًا في آن واحد، تحقير للحجم وتعظيم للفعل والأثر، يقول البدر العيني: " وفي تنكيرها ما يشير إلى تقليلها تعجبًا من أمرها "[1].

"إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ": في التعبير بالصلاح دقة متناهية تناسب الإعلان عن تلك الحقيقة العلمية ومع ما فيه من دقة جاء في غاية الجمال والروعة وزاده بهاءً وجمالًا ذلك الطباق بين تلك الحالتين المختلفتين حالة الصلاح وما تحمله من سمو النفس، ونقاء السريرة، وصحة البدن، وقوته، ونشاطه، وخلوه من علله وأمراضه، وحالة الفساد وما تحمله من ضيق النفس، واسوداد القلب ، ومرض البدن، وضعفه واعتلاله.

إن تكرار الصلاح والفساد مرة في جانب الجسد ومرة في جانب المضغة لهو دليل واضح على تأكيد الصلاح للجسد كله أو الفساد للجسد كله من خلال إصلاح تلك المضغة الصغيرة القليلة أو إفسادها، إنها مقابلة رائعة بين الصلاح والفساد، وذكر المقابل هنا لا محيص عنه في صياغة مثل

---

١ عمدة القارئ لشرح صحيح البخاري، بدر الدين أبي محمد محمود بن أحمد العيني جـ١ صـ ٢٩٥. د.ط، دار إحياء التراث العربي_ بيروت، د.ت.

هذا الخطاب النبوي؛ لأن عليه بني الكلام، وإليه وجه الهدف، وبه تقوم رسالة هذا الحديث، فالحديث من أوله إلى آخره يؤدي رسالة واحدة وهي التمييز والتفريق بين حالين ولا سبيل إلى ذلك إلا بالمقابلة والتضاد، فبضدها تتمايز الأشياء، ويُعرف الجميل من القبيح، إنه تمايز بين: الحلال والحرام، الصلاح والفساد، اتقاء الشبهات والوقوع فيها.

وفي التأكيد على هذه الحقيقة دليل من دلائل نبوته -ﷺ-؛ إذ يؤكد الرسول على حقيقة علمية في وقت ليس هناك مركز علمي في الأرض قادر على اكتشاف تلك الحقيقة التي أثبتها علماء الطب في العصر الحديث وهي أن صلاح الجسد كله إنما يكون بصلاح القلب ففي صلاح القلب صلاح للجسد كله وفي فساده فساد للجسد كله. فاستخدام الحرف (إذا) ليدل دلالة قاطعة على أن الرسول -ﷺ- موحى له من قبل الله عز وجل ويدل على كمال بلاغته وروعة فصاحته وسعة علمه ودقة كلماته.

إن التأكيد لهذا الأمر بهذا الشكل لا بد وأن يلفت نظرنا إلى أهمية هذا الموضوع وإلى ضرورة الاهتمام بتلك القطعة في الجسد والقيام على رعايتها والاهتمام بها وعدم إهمالها، إن القلب بهذا الحرف (إذا) احتل مكانة عالية في الحماية والرعاية والصون والحفاظ، تلك الرعاية التي من شأنها أن يصل نفعها إلى الجسد كله، ولهذا أظهر لفظ الجسد في موضعين كان الأصل فيهما التعبير بالضمير وذلك في قوله: أَلا وَإِنَّ فِى الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، إذ الأصل أن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح كله، وإذا فسدت فسد كله.

إن هذا الإعجاز واضح في انتقاء الكلمة فلم يقل -ﷺ-: (في صحة القلب صحة للجسد) لكي لا ينحصر الأمر في الماديات فحسب وهو ما أكده علم

الطب من أن صحة الجسد تترتب على صحة القلب.

ولم يقل في ( سلامة القلب أو صفائه ) لكي لا ينحصر الأمر في المعنويات فحسب وهو ما أكده علماء النفس من أن الإنسان الذي يعيش صافي القلب لا يحمل حقدًا ولا غلًا ولا حسدًا هو الإنسان الذي يتمتع بجسد صحيح معافى.

"أَلا وَهِى الْقَلْبُ" بدون إن المؤكدة مع أن المعهود مع هذا الأسلوب وجود (إن) أي: ( ألا وإنها القلب) لكنه عدل عن هذا الأسلوب المؤكد؛ لأن النفس تهيأت لتلقي هذا الخطاب، وهذا أمر مهم جدًا وبالغ الضرورة خاصة في حياتنا المعاصرة اليوم، إذ ينبغي أن نهيأ للخبر ونمهد له قبل إلقائه على مسامع المتلقي إن أردنا قبولًا وإذعانًا وتسليمًا.

❊ ❊ ❊

# المبحث الثاني
# الناصية بين الإعجاز العلمي والبيان النبوي

**قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ-: " مَا أَصَابَ مُسْلِمًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي فِي يَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ بَصَرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَأَبْدَلَ لَهُ مَكَانَ حُزْنِهِ فَرَجًا "، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا نَتَعَلَّمُ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ؟ قَالَ: «بَلَى، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهُنَّ أَنْ يَتَعَلَّمَهُنَّ» .**

**عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ -ﷺ- كَانَ يَأْمُرُهُم إِذَا أَرَادَ أَحَدُهُم أَنْ يَنَامَ أَنْ يَضْطَجِعَ عَلَى شِقِّهِ الأَيْمَنَ ثُمَّ يَقُولُ: «اللَّهمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَرَبَّ الأَرْضِ وَرَبَّ العَرْشِ العَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ فَالِقَ الحَبِّ وَالنَّوَى، وَمُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالفُرْقَانِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ اللَّهمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ البَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ وَأَغْنِنَا مِنَ الفَقْرِ». ".[1]**

**" إِذَا أَفَادَ أَحَدُكُمُ امْرَأَةً، أَوْ خَادِمًا، أَوْ دَابَّةً فَلْيَأْخُذْ بِنَاصِيَتِهَا، وَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِهَا، وَخَيْرِ مَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا**

١ أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، برقم ٢٧١٣، عن أبي هريرة t

**جُبِلَتْ عَلَيْهِ "[1].**

**وجه الإعجاز:**

**هذه الأحاديث تؤكد أن الناصية هي مركز التوجيه والضبط، وأن مكان تسيير شئون الدواب وقيادتها يكمن في ناصيتها، وهذا ما يتفق مع ما كشفه تشريح المخ في العصر الحديث من أن مقدمة المخ، أو الفص الأمامي منه، والذي يقع خلف الجبهة هو الخاص بعلاقة الناصية والشخصية.**

**وقد كان الظن لسنوات عديدة أن الأجزاء الأمامية أو الجبهية من المخ والتي تسمى الفصوص أو الفلقات الجبهية هي مناطق صامتة من المخ، وأن دورها ضئيل في التحكم في وظائف الجسد، وكان سبب وجود هذه الأفكار، هو أنه عند قطع أو بتر الألياف العصبية الداخلية والخارجية من الفلقات الجبهية، فإنه لم يكن يلاحظ تغير مذكور في نشاطات الحيوانات.**

**وقد لوحظت تأثيرات مشابهة على الناس الذين تعرضت فلقاتهم الجبهية لتدمير أو بتر للألياف المرتبطة بها خلال الحوادث..**

**وزاد في ترسيخ فكرة أن الفلقات الجبهية صامتة أن استثارة الأجزاء الداخلية فيها لا يترتب عليها أي حركة في جسم الناصية..**

**وقد بينت دراسات رسوم المخ الإلكترونية، ودراسات وظائف الأعضاء الكهربية أن من تعرضت فلقاتهم الجبهية للتلف فإنهم غالبًا ما يعانون من**

---

١ ابن ماجه في سننه ، و الحاكم في المستدرك ، و النسائي في السنن الكبرى ، و البيهقي في السنن الكبرى ، و ابن عبد البر في التمهيد ، و الطبراني في الدعاء ، و ابن السني في عمل اليوم و الليلة ، و البيهقي في الدعوات الكبير ، كلهم من طريق عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده عمرو بن العاص ، عن النبي ، به.

تناقص في قدراتهم العقلية، وقد يعانون من هبوط في المعايير الأخلاقية، ويبدي المرضى علامات من الابتهاج، والرضا عن النفس، وكثيرًا ما يبدون أمارات تبجح، وتتقلص قدراتهم على التركيز، والمبادرة والتحمل، وتتناقص بدرجة كبيرة قدرة المريض على الحكم على موقفه، وينحصر قلقه على الحاضر، وعلى نفسه..

وبإيجاز فإنه من المعلوم الآن أن الفلقات الأمامية هامة جدًا للعقل؛ لأنها ترتبط بالعمليات العقلية العليا، فنحن نقوم بعمل الخطط داخل الفلقات، وهكذا فإنها تؤثر في أفعال ووظائف أجزاء المخ الأخرى، مثل أفكارنا، ومشاعرنا، وأحاسيسنا.

ولذا سنقف في هذه الأحاديث على مواطن الإعجاز والتي وردت بهذه الأساليب:

١- نَاصِيَتِي فِي يَدِك

٢- أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ

٣- فَلْيَأْخُذْ بِنَاصِيَتِهَا

<u>الشرح والتحليل البلاغي:</u>

قوله: (اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أُمَّتِكَ، ): اعتراف العبد بأنه مخلوق للَّه تعالى، مملوك له، هو وآباؤه وأمهاته، ابتداءً من أبويه المقربين، وانتهاءً إلى آدم وحواء، وجاء الخبر مؤكدًا بإن واسمية الجملة؛ ليؤكد على أن الكل مماليك للَّه عز وجل خالقهم، ومدبّر أمورهم، وشئونهم، لا غنى لهم عنه طرفة عين، وليس لهم من يلوذون ويعوذون به سواه، وهذا فيه كمال التذلّل والخضوع والاعتراف بالعبودية للَّه تعالى؛ لأنه لم يكتف بقوله: (إني عبدك) بل زاد فيه (ابن عبدك ابن أمتك) فهذا الإطناب في الكلام دلالة على التأكيد والمبالغة في التذلّل، والعبودية للَّه

تعالى؛ لأن من ملك رجلًا ليس مثل من ملكه مع أبويه.

وهذا الأسلوب الرائع يدلنا على أهمية الأدعية الشرعية؛ لكمالها في ألفاظها ومعانيها، وجلال مقاصدها ومدلولاتها.

قوله: (نَاصِيَتِي فِي يَدِكَ): أي مقدمة الرأس بيد اللَّه تعالى، يتصرّف فيه كيف يشاء، ويحكم فيه بما يريد، لا معقب لحكمه، ولا رادّ لقضائه، وحرف الجر(في) أفاد التمكن التام الكامل، فليس المقصود أن تكون الناصية في اليد حقيقة، ولكنه تسليم من النبي إلى الله تعالى، بأن كل شأنه لله، وأن الله يتحكم كيف يشاء ويقدر له ما يشاء.

إننا إلى وقت قريب وقبل الانفجار العلمي، والانفتاح الطبي كنا نفهم (نَاصِيَتِي فِي يَدِكَ): فهمًا محدودًا ضيقًا _ وإن كان صحيحًا- على أنه تعبير مراد به الكناية عن قمة التمكن والتحكم والقهر والغلبة، وكذلك الأخذ بالناصية في قوله: أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، فالعرب كانوا إذا أرادوا وصف إنسان بالذلة والخضوع والهوان لغيره قالوا : " ما ناصية فلان إلا بيد فلان "، أي أنه في قبضته يصرفه كيف يشاء . ويقال: فلان(ناصية) قومه و(نصيتهم) أي رأسهم وعينهم وخيارهم و(النصي) أفضل المراعي ، كما كنا نفهم هذا التعبير أيضًا على أنه مجاز مرسل علاقته المحلية؛ لأن المراد بالناصية المشاعر والأحوال وهي محل لها.

وهذا الفهم وإن كان صوابًا هو وما قبله، ويحتمله الحديث النبوي الشريف، إلا أنه لا يليق بنا ونحن في القرن الواحد والعشرين أن نقف بهذا المعنى عند هذا الحد دون مراعاة لما وصل إليه العلم الحديث، خاصة وأن السنة النبوية صالحة لمخاطبة الناس في كل زمان ومكان.

والسؤال: هل أدرك النبي الرحيم -ﷺ- أن منطقة الناصية تلعب دورًا مهمًا في العمليات العليا للإنسان مثل الإدراك واتخاذ القرارات والتوجيه وحل

المشاكل، ولذلك سلَّم هذه المنطقة لله تعالى في دعائه: (ناصيتي بيدك)؟.
وهنا لا بدّ من أن نتساءل: هل يوجد تناقض بين ما جاء في السنة قبل أربعة عشر قرنًا، وبين ما يكشفه العلماء في القرن الحادي والعشرين؟.
إن هذه الجملة هي مناط الإعجاز؛ إذ اختار الناصية دون غيرها من أعضاء الجسم- والناصية هي الجبهة أي مقدم الرأس أو الشعر الذي يغطي مقدمة الرأس، وجمع ناصية: نواصي؛ للإشارة إلى أن ناصية الإنسان هي مركز التحكم في شخصيته وسلوكه، وتخطيطه وإرادته، وتنظيمه لأموره، وحل مشاكله، وغير ذلك من وظائف معارفه العليا.
قوله: ( مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ): حكم الله ماض في العبد شاء أم أبى، إن التعبير بصيغة اسم الفاعل لهو دلالة قوية على التمكن من هذا الأمر والدوام عليه والملازمة له، فحكم الله نافذ ماض، لا جدال في ذلك، ولا إنكار له.
قوله: (عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ): بالمصدرية المباشرة ليكون الأسلوب الأساسي في إثبات العدل لله مع من لا تسمح ذاته بعكس تلك الصفة، فهو إقرارٌ من العبد بأن جميع أقضيته سبحانه وتعالى عليه من كل الوجوه: من صحة وسقم، وغنى وفقر، ولذة وألم، وحياة وموت، وعقوبة وتجاوز، وغير ذلك عدلٌ لا جور فيه، ولا ظلم بأي وجهٍ من الوجوه، قال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾.
وتقديم الجار والمجرور في قوله(فِيَّ حُكْمُكَ، فِيَّ قَضَاؤُكَ) لأن الإنسان هو محور هذا الحديث الشريف، وإثبات العبودية لله تعالى هو مطلب الحديث وهدفه؛ لذا اقتضى السياق هذا الأسلوب الذي يتعاون مع المعنى في الوصول إلى الهدف والغاية التي جاء لأجلها الحديث.
ثم شرع في الدعاء بعد إظهار غاية التذلل والخضوع لربه تعالى، وهذا من

أدب السائلين، وهذه الحالة أقرب إلى إجابة السؤال، ولا سيما إذا كان المسؤول منه كريمًا، ومن أكرم من اللَّه تبارك وتعالى الذي لا يوازيه أيُّ كريم ولا يعادله أيّ نظير؟.

فإذا تضرع إليه عبده، وتذلل له، وأظهر له سبحانه الخضوع والخشوع ثم سأل حاجة استجاب له على ما هو اللائق لكرمه وجوده.

قوله: ( أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ): أتوسّل إليك بكل اسم من أسمائك الحسنى، وهذا هو أعظم أنواع التوسّل إلى اللَّه تعالى بالدعاء، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾.

قوله: (سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ): أي اخترته لنفسك والذي يليق بكمالك وجلالك، إن تكرار حرف السين في هذا السياق في تلك الكلمات المتتابعة يساهم في بناء ايقاع داخلي يحقق إنسجاما موسيقيًا خاصًا.

قوله: (أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ): في كتبك المنزلة على رسلك، يتعبّد به عبادك ويسألونك ويدعونك به

قوله: (أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ): من الأنبياء والملائكة، ومنهم محمّد- ﷺ-..

(أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ): أي خصصت به نفسك في علم الغيب، فلم يطّلع عليه أحد، وهذا كلّه تقسيم لقوله: (بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ)، وهذا يدلّ على أن أسماءه تعالى الحسنى غير محصورة في عدد معين، فجعل أسماءه تعالى على أقسام::

قسم: سمَّى به نفسه، فأظهره لمن شاء من أنبيائه ورسوله، وملائكته أو غيرهم، ولم يُنزله في كتابه، وقسم: أنزله في كتابه، فتعرَّف به إلى عباده، وقسم:علمه أحدًا من خلقه، وقسم:استأثر به في علم الغيب عنده لا يطّلع عليه أحد، فتضمّن هذا الدعاء المبارك التوسّل إليه تعالى بأسمائه

الحسنى كلّها، ما علم العبد منها، وما لم يعلم، والعلم بأسماء اللَّه وصفاته أصل لكل العلوم؛ لأنه كُلَّما كان عظيم العلم والمعرفة باللَّه تعالى وأسمائه وصفاته زادت خشية العبد لربه، وعظمت مراقبته وعبوديته له جلّ وعلا، وازداد بُعدًا عن الوقوع في سخطه ومعصيته؛ ولهذا كان أعظم ما يطرد الهمّ والحزن والغمّ أن يعرف العبد ربه بأسمائه وصفاته، وأن يعمر قلبه بذكرها، والثناء بها عليه، واستحضار معانيها.

فبعد أن قدَّم جملا من الإقرار بالتذلل والخضوع له تعالى، والإيمان بكمال حكمه وقضائه وعدله، توسل إليه بجميع أسمائه الحسنى وصفاته العُلا في إعطاء ما يسأله العبد ربه عز وجل فقال:

(أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي وَنُورَ بَصَرِي): أي: فرح قلبي، وسروره، ونور تشرق به أنوار المعرفة، فأميّز الحق والباطل، وخُصَّ (الربيع) دون فصول السنة؛ لأن الإنسان يرتاح قلبه في الربيع من الزمان، ويميل إليه ويخرج من الهمّ والغمّ، ويحصل له النشاط والسرور والابتهاج، فالتعبير بالربيع مجاز مرسل علاقته المحلية حيث عبر بالربيع وأراد الحال فيه من الفرح والسرور، ثم إنه ليس أي فرح ولا أي سرور إنه فرح متجدد وسرور مستمر، ولذا عبر بالفعل المضارع (تجعل) لجعل القلب في حالة متجددة للارتياح إلى القرآن، والميل إليه، والرغبة في تدبره، وهذا يدلّ على أن القرآن هو الشفاء الناجح لمن تأمله وتدبّره، وتمسّك به.

قوله: (وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَأَبْدَلَ لَهُ مَكَانَ حُزْنِهِ فَرَجًا): الجلاء هو: الانكشاف، أي انكشاف حزني وهمّي؛ لأن القرآن شفاء، كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾؛ لأنه كلام اللَّه تعالى الذي ليس كمثله شيء، وأي شيءٍ يقف أمام هذا الكلام العظيم، فالقرآن

الذي هو أفضل الذكر، كاشف للحزن، ومُذهب للهمّ لمن يتلوه بالليل والنهار بتدبّر وتفكّر، فليس شيء مثله مُذهب للأوهام والأحزان، والأمراض النفسية العصرية، وفيه من نعيم القلب، وأنسه، ولذّاته، وراحته ما لا يوصف، وعلى قدر تحصيل العبد لكتاب اللَّه تعالى: تلاوةً، وحفظًا، وفهمًا، ومدارسةً، وعملًا ينال من السعادة والراحة والطمأنينة والعافية في البدن والنفس ما لا يحصيه إلا اللَّه تعالى..

ولهذا قال المصطفى -ﷺ-: (يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهُنَّ أَنْ يَتَعَلَّمَهُنَّ) لما تضمنه هذا الدعاء من معان عظيمة و مقاصد جليلة.

ومن الأدعية الجليلة أيضًا الأدعية التي اشتمل عليها الحديث الثاني:

قوله: (اللَّهمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَرَبَّ الأَرْضِ وَرَبَّ العَرْشِ العَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ.) فهو دعاء عظيم، ذو شأن كبير؛ لما فيه من التوسلات العظيمة إلى اللَّه تبارك وتعالى بربوبيته لكل شيء،وبلاغة الرسول -ﷺ- تمثلت في حسن الابتداء؛ حيث بدأ عليه السلام بتعظيم الله عز وجل، والاعتراف بربوبيته؛ ليكون أقرب للإجابة، فجاء البدء بكلمة(اللَّهمَّ) التي تجتمع فيها كل معاني الربوبية، والكمال، والقوة والجلال، وتحمل قيمة عليا وقدسية كبرى تميزها عن غيرها؛ فكانت فى قمة الفصاحة في هذا الموضع الذي استدعاها، فهو موضع جلال وعظمة وقدرة وقوة لله عز وجل، واستكمالًا لتلك العظمة جاء بقوله: (كُلِّ شَيْءٍ ) فهو اختصار بليغ؛ حيث ضمت هاتان الكلمتان الأجرام العظيمة من السموات السبع، والأرضين السبع، والمعنى: يا خالق هذه الكائنات العظيمة ومبدعها، وموجدها من العدم، وخُص بربوبيته لهذه المخلوقات بالذكر أعني السماء والأرض؛ لعظمها وكبرها، ولكثرة ما فيها من الآيات البينات، والدلالات الباهرات على كمال خالقها، وعظمة مبدعها، قال اللَّه تعالى: "لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ

مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ"، ثم إنه قدم السماء على الأرض لأن السماء أسبق وجودًا من الأرض، كما أن السماء هي الأليق بالدعاء ففيها عرش الرحمن وهي مكان العلو الذي يتناسب مع الله عز وجل.

وقوله: (وَرَبَّ العَرْشِ العَظِيمِ) توسل بربوبيته لأعظم المخلوقات كما روى عبد الرحمن بن زيد قال: حدثني أبي قال: قال رسول الله -ﷺ-: (ما السموات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس)، قال: وقال أبو ذر: سمعت رسول الله -ﷺ- يقول: (مَا الْكُرْسِيُّ فِي الْعَرْشِ، إِلَّا كَحَلَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَيْ فَلاةٍ مِنَ الْأَرْضِ)، والكرسي أكبر من السموات و الأرض "وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ"، إن وراء هذا الكلام كلام آخر، ففيه اقتصاد في الألفاظ وفيضان في المعنى؛ لأنه إذا كان العرش العظيم بهذه العظمة والسعة والمجد، فكيف بخالقه وموجده ومبدعه؟ تبارك ربنا وتعالى الذي"لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ".

إن الإيجاز هنا يمثل قيمة جمالية مضافة داخل النص، وهو قضية جمالية لا تقل أهمية عن قضية احتياج الكلام له، فهو فن بلاغي واضح ظاهر، وقيمة جمالية في الحديث النبوي الشريف.

" أما تأثيرها الجمالي فيعتمد على مبدأ كسر التوقع فيما يتعلق بمسار المعنى، مما يمنح الشعور لذة خفية تحدث نوعًا من الموسيقى الداخلية في داخله"[1].

وكما تمثل هذا الإيجاز في القصر تمثل في الحذف المصاحب للمنادى أيضًا (رب) للتنزيه والتعظيم، والتأكيد على أن الله قريب من نفس عبده،

١ ينظر قصيدة النثر من التأثير للمرجعية، عبد العزيز موافي ص ٢٩٥

مستقر في وعيه وضميره، فهذه الأداة لا تصلح لأنها لنداء البعيد، وهذا الحذف يماثل الحذف الحاصل مع(رب) في آي الذكر الحكيم، فالحديث الشريف يسير في ظلال القرآن لغة وبيانًا.

وقوله: (فَالِقَ الحَبِّ وَالنَّوَى): منه الفلق، وهو الشق أي: شاق حبة الطعام والنوى، وهي: عجمة التمر؛ لتخرج الأشجار والزروع؛ وفي هذا استقصاء لكل الأنواع فإنَّ النباتات إما: أشجار أصلها نوى، أو زروع أصلها الحب، فاللَّه سبحانه وتعالى لكمال قدرته، وبديع خلقه هو الذي يفتح هذا الحبّ والنوى اليابس الذي كالحجر لا ينمو ولا يزيد، فينفرج وتخرج منه الزروع العظيمة، والأشجار الكبيرة، وفي هذا آية باهرةٌ على كمال المبدع، وعظمة الخالق سبحانه وتعالى كما قال اللَّه تعالى: "إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ"، وقد خصهما بالذكر لفضلهما، واحتياج كل الخلائق لهما، ولكثرة وجودهما في ديار العرب، وقد جاء ذكرهما بعد ذكر الأرض وتكوينها؛ لتستقر الحياة وتترسخ مقوماتها، ويتهيأ أسباب العيش فيها، فيحيا الناس ويتكاثرون.

ومع استقرار تلك الحياة وتوفير الأمن الغذائي يأتي الأمن النفسي والمجتمعي المتمثل في الشرائع السماوية التي ترسم دعائم الحياة الإنسانية فجاء قوله -ﷺ-:

(وَمُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالفُرْقَانِ) ففيه توسُّل إلى اللَّه عز وجل بإنزاله لهذه الكتب العظيمة المشتملة على هداية الناس، وفلاحهم، وسعادتهم في الدنيا والآخرة، وخص هذه الكتب الثلاثة؛ لأنها أعظم كتب أنزلها اللَّه تعالى، وذكرها مرتبة ترتيبًا زمنيًا، فالتوراة أولًا على موسى عليه السلام، ثم الإنجيل على عيسى عليه السلام، ثم مسك الختام القرآن على خير

الأنام محمد -ﷺ-.

(والفرقان) هو القرآن، وسُمِّي فرقانًا لأنه يفرق بين الحق والباطل؛ ولذا آثر هنا التعبير بالفرقان بدل القرآن؛ لأن سياق الحديث كله قائم على هذه المفارقات، ومبني على الشيء وضده، على طلب الخير والاستعاذة من الشر، وعلى اجتماع الضدين في صفات الله عز وجل، فهو الأول وهو الآخر وهو الظاهر وهو الباطن .

إن ترتيب الجمل في هذا الحديث النبوي الشريف ترتيب حقيقي منطقي فبعد أن ذكر الأرض وما تحمله الأرض من معنى التمهيد للعيش يأتي ذكر الحب والنوى وذلك مطلب للعيش على هذه الأرض، فهذه الأرض لا بد لها من عوامل ومقومات تضمن الاستقرار والعيش والبقاء الجسدي، ثم بعد ذلك يتطلب أمر المعيشة الضمان النفسي والمجتمعي فيأتي ذكر التوراة والإنجيل والقرآن، تلك الشرائع السماوية الكفيلة بإسعاد البشرية.

إن ترتيب الجمل بهذا الشكل البديع -الذي تتداخل وتتلاحم فيه، ويتبع بعضها بعضًا، وكأنها جملة واحدة-لهو قمة البلاغة وهذا ما تحدث عنه عبد القاهر الجرجاني إذ يقول:

" واعلم أن مما هو أصل في أن يدق النظر، ويغمض المسلك في توخي معاني الكلام التي عرفت أن تتحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها في بعض، ويشتد ارتباط ثان منها بأول، وأن تحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعًا واحدًا، وأن يكون حالك فيها حال الباني، يضع بيمينه ها هنا في حال ما يضع يساره هناك، وفي حال ما يبصر مكان ثالث ورابع يضعها بعد الأولين وليس لما شأنه أن يجئ على هذا الوصف حد

يحصره، وقانون يحيط به فإنه يجئ على وجوه شتى وأنحاء مختلفة".[1]

قوله: (أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ) أعوذ: أي ألتجيء، وأعتصم بك، وأحتمي بجانبك: فمن استعاذ بك عذته، وقد شملت هذه الاستعاذة كل الشرور، فإن (كل) من صيغ العموم، (شيء) أعم العمومات، فما من شر إلا وقد استعيذ منه.وفي هذا إيجاز رائع وهي خاصية اتسم بها دعائه -ﷺ-، ولذا كان دعاؤه صلوات ربي وسلامه عليه حيًا في قلوب المسلمين، نابضًا في عروقهم، إذ هو دعاء اشتمل على بلاغة رائعة وفصاحة عالية.

" ولا نعلم أن هذه الفصاحة قد كانت إلا توفيقًا من الله وتوقيفًا، إذ بعثه للعرب، وهم قوم يقادون في ألسنتهم، ولهم المقامات المشهورة في البيان والفصاحة.... فكان -ﷺ- يعطي كل ذلك حقه، كأنما تكاشفه أوضاع اللغة بأسرارها، وتبادره بحقائقها، فيخاطب كل قوم بلحنهم..... ثم لا يكون إلا أفصحهم خطابًا، وأسدهم لفظًا، وأبينهم عبارة"[2] .

قوله: (ومن شر كل دابة) الدابة: هي كل ما يدبُّ على الأرض، وهو يشمل الذي يمشي على بطنه، أو على رجلين، أو على أربع، كما قال تعالى: "وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ".

قوله: (أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ) الناصية هي مقدم الرأس، وفيه دلالة على أن

---

١ دلائل الإعجاز ٩٣

٢ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، دالر الكتب العلمية، بيروت ط٢، ص١٩٦.

كل المخلوقات داخلةٌ تحت قهره وسلطانه وتصرفه قادرٌ عليها، يتصرف فيها كيف يشاء، ويحكم فيها ما يريد عز شأنه.

إن هذه العبارة على قصرها تتضمن إعجازًا طبيًا دقيقًا في علم التشريح، ويستفاد منها أن حرية الاختيار متاحة للإنسان وهي مرتبطة كما يفهم من الحديث بالناصية، أي بالفص الجبهي للدماغ، فالإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يمكن أن يتحكم في سلوكه وفق ضوابط التصرفات القولية والفعلية – من الشر والخير – ولذا جاء الربط العجيب بين الشر والناصية في سياق واحد ، ولهذا أيضًا جاء التهديد بقطع أو فصل الناصية عند عدم الانتهاء من قول وفعل الشر في قوله سبحانه:(لئن لم ينته لنسفعن بالناصية) أي لئن لم ينته عما يقول ويفعل وينزجر، لنأخذن بناصيته أخذًا عنيفًا.

إنه عند التحقيق بدراسة التركيب التشريحي لمنطقة أعلى الجبهة وجد أنها تتكون من أحد عظام الجمجمة المسمى بالعظم الجبهي،) ويستتر خلفه محميًا به أحد فصوص المخ المسمى بالفص الجبهي وبهذا يمكن القول بأن الناصية كما تطلق على العظم الجبهي، يمكن أن تطلق أيضا على ما يستتر خلفه من الفص الجبهي للدماغ، حيث إنه الجزء والمكان الذي يمكن أن يوصف بهذه الأوصاف وصفًا حقيقيًا، ويتحقق العمل فيه بظاهر النص من غير حاجة إلى تأويل أو مجاز.

فمفهوم النص في قول النبي–ﷺ–: ( أنت آخذ بناصيته ) وقوله (ناصيتي بيدك ) يؤكد هذا المعنى حيث تشير النصوص إلى أن الجزء المختص بقيادة الدواب كلها وتوجيهها– وعلى رأسها الإنسان – يخضع لهيمنة الله وسلطانه، وهذا الجزء لابد أن يكون في الدماغ؛ حيث هو العضو المختص بتسيير شئون الدواب والسيطرة على تصرفاتها. وبما أن النصوص سمت

هذا الجزء بالناصية فلابد أن يشمل الجزء الأمامي من الدماغ الذي يقع خلف مقدمة الرأس.بناء على ذلك فإن مفهوم النصوص يتيح لنا أن نقول بأن الناصية بما تحوى من الفص الجبهي للدماغ هي مكان القيادة والتوجيه للسلوك والتصرفات الإنسانية..

ثم شرع –ﷺ– في التوسل ببعض أسمائه الحسنى، وصفاته العُلا فقال: (اللَّهمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ البَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ) أي: يا اللَّه أنت الأول الذي لا شيء قبلك ولا معك، وأنت الآخر الباقي بلا انتهاء، بعد فناء كل شيء وأنت العالي فوق كل شيء، فلا شيء أعلى منك، أي أنت المطلع على السرائر والضمائر والخبايا والخفايا، وأنت المحتجب عن الخلق، فلا يقدر أحد على إدراك ذاتك مع كمال ظهورك..

إن هذه الجملة الدعائية تشتمل على إطناب فقد اشتملت على إيضاح بعد إبهام لأن كلمة ( الأول) تساوي تمامًا معنى أن ليس قبل الله شيء، وكذلك (الآخر) تعني أن ليس بعد الله شيء إنه إطناب غايته المبالغة في الضراعة والاستعطاف عن طريق إجلال الله وتعظيمه.

وجاء السياق مؤثرًا لهذه الأسماء دون غيرها من أسماء الله عز وجل وصفاته؛ لأن مدار هذه الأسماء الأربعة على بيان إحاطة الرب سبحانه وتعالى وهي إحاطتان: زمانية ومكانية، أما الزمانية فقد دل عليها اسمه الأول والآخر، والمكانية فقد دل عليها اسمه الظاهر والباطن وهذا ما يتناسب والهدف الذي جاء الحديث له.

لقد كان الوصل بحرف العطف( الواو ) بين الجمل التي جمعتها معان مشتركة، وهذه الجمل صح فيها الوصل؛ فالمسند إليه في الجمل الأربع واحد وهو ضمير الرفع المنفصل(أنت)، وكل جملتين يجمعهما تضاد بين

المسندين ( الأول، الآخر) (الظاهر، الباطن) وهذا قمة البلاغة؛ إذ يحسن أن يكون الخبر عن الثاني بمنزلة الشبيه أو النظير أو النقيض للخبر الأول، وكلما زادت الصلة السابقة ازداد معنى الجمع في (الواو) قوة وظهورًا [1].

إن الوصل في هذا الدعاء له تأثير قوي في إبراز المعنى وتكثيفه، فلا يمكن أبدًا إبراز عظمة الله وجلاله إلا بإبراز الصفة وضدها لأن ذلك مما ليس في طاقة البشر فمهما كانت عظمة أي شخص وقوته فإنه لا يستطيع أن يحصل على الصفة وضدها.

قوله: (اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ) فبعد تلك التوسلات الجليلة من أسمائه العليَّة شرع في السؤال والطلب: أي أدِّ عنا الحقوق التي بيننا وبينك، والحقوق التي بيننا وبين عبادك، وفي هذا تبرؤ العبد من الحول والقوة، وأنه لا حول له ولا قوة له إلا باللَّه العظيم..

قوله: (وَأَغْنِنَا مِنَ الفَقْرِ) الغنى: هو عدم الحاجة؛ لوجود الكفاية، والفقر: خلو ذات اليد، والفقير من وجد بعض كفايته، أو لم يجد شيئًا، والدَيْن والفقر همّهما عظيم يصيب العبد بسببهما الهم والحزن، وقد يوقعان الضرر في الدين والدنيا من ذل السؤال، والاحتياج إلى الخلق، والوقوع في المحذورات الشرعية من الكذب والإخلاف في الوعد، والتثاقل عن الطاعات، وغير ذلك الكثير من المذمومات.

إن هذا الدعاء النبوي الشريف يمتاز بعمق المعاني، وشموليتها لكافة مناحي الحياة من الاستعاذة من الشر، وقضاء الدين، والغنى من الفقر، فقد جمع صلاح الدين والدنيا في كلمات وجمل موجزة، وهذا يشير إلى

---

١ دلائل الإعجاز ص٢٢٦

**بلاغته –ﷺ– الناصعة، وبيانه الراقي الذي وصفه القاضي عياض فقال: " وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول، فقد كان –عليه السلام– من ذلك بالمحل الأفضل والموضع الذي لا يجهل، سلامة طبع، وبراعة منزع، وإيجاز مقطع" [1].**

**"فَلْيَأْخُذْ بِنَاصِيَتِهَا" أثبتت الأدلة الإكلينيكية (السريرية) أن تلف الفص الجبهي أو فصله يؤدّي إلى فقدان المريض التحكم في سلوكه الاجتماعي، والمقدرة على استعمال الألفاظ، مع تغييرات كبيرة في معالم الشخصية، حيث تنقص قدرته في التركيز وروح المبادرة والتحمل، وعلى حل المشكلات التي تحتاج لقدرة عقلية متميزة، وتتأثر قدرة المريض على الحكم على موقفه فيفقد الشعور بالمسؤولية نحو نفسه كما تحدث بعض التغيرات العاطفية فيبدي المريض علامات الابتهاج والرضا عن النفس كما يفقد اهتمامه بمظهره الاجتماعي وقد يعاني من هبوط في المعايير الأخلاقية. وقد أخذ هذا كدليل قوي على وظيفة قشرة ما قبل الجبهة في التحكم في الجوانب الأكثر تعقيدًا في السلوك البشرى.**

١ كتاب الشفاء، القاضي عياض، مصطفى البابي الحلبي، ج١، ص٤٧.

اكتشف العلماء حديثاً أن المنطقة المسؤولة عن الكذب هي مقدمة الدماغ أي الناصية، واكتشفوا أيضاً أن منطقة الناصية تنشط بشكل كبير أثناء الخطأ، ولذلك فقد خلصوا إلى حقيقة علمية تؤكد أن عمليات الكذب و الخطأ تتم في أعلى ومقدم الدماغ في منطقة اسمها "الناصية" والعجيب أن القرآن الكريم تحدث عن وظيفة هذه الناصية قبل قرون طويلة يقول تبارك وتعالى:
(كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ۝ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ) [العلق: 15-16]
فوصف الناصية بالكذب والخطأ وهذا ما يراه العلماء اليوم بأجهزة المسح المغنطيسي، فسبحان الله العظيم!

فقشرة المخ في الفص الجبهي تتحكم في سلوك الإنسان: ولتأكيد هذا الاستنتاج نجد أن عدم وجود معظم قشرة الفص الجبهي في الحيوانات يظهر أثره في السلوك الحيواني، فحاسة الشم تثير السلوك الجنسي مباشرة، وكذلك السلوك الغذائي والنشاط الحركي المتعلق بهذه الوظائف، أما بالنسبة للإنسان فلابد من اعتبارات ومعلومات تم تخزينها وترسيخها مسبقًا في وظائف قشرة الدماغ، خاصة في مناطق الربط، بالإضافة إلى الوظائف الحوفية الغرائزية، قبل أن يقع السلوك الجنسي أو الغذائي أو أي سلوك أخر، مع ما يتبع ذلك من القيام بأعمال حركية أخرى بالأيدي أو الأرجل أو أي أجزاء أخرى من الجسم كحركة العين للرؤية، وحركة اللسان بالنطق، وهكذا يكون الخيار بالقيام بعمل أو عدم القيام به مركوزًا في مناطق الحركة الإرادية في الفص الجبهي ذو المساحة الشاسعة من قشرة الدماغ، خاصة في مناطق الربط فيه.

ولقد اختار الرسول -ﷺ- هذه المنطقة؛ لأنها المسؤولة عن التوجيه والسلوك والقيادة. وبذلك يكون الحديث أول خطاب بشري يشير إلى أهمية هذه المنطقة من الدماغ في التوجيه والسلوك، فمنطقة الناصية هي التي تتحكم باتخاذ القرارات الصحيحة وبالتالي كلما كانت هذه المنطقة أكثر فعالية وأكثر نشاطًا وأكثر سلامة كانت القرارات أكثر دقة وحكمة، وبالتالي كان الإنسان على طريق مستقيم، ومن هنا ربما ندرك سرّ الربط الإلهي بين الناصية وبين الصراط المستقيم في الآية الكريمة (مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ). وفي هذا إشارة إلى أهمية هذه المنطقة في سلوك الإنسان وهذا ما أثبته العلم، وأكده القرآن، وأشار إليه.

ولهذا كان أمر الرسول -ﷺ- بأخذ الناصية قبل هذا الدعاء

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِهَا، وَخَيْرِ مَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ "

لأن الجزء الأمامي من الدماغ هو أهم جزء في الدماغ، حيث يتم فيه توجيه الإنسان والحيوان، ويتم فيه اتخاذ القرارات المهمة، سواء كانت صحيحة أم خاطئة. ويتم فيه أيضًا التخطيط للخير والشر وبالتالي كلما كانت هذه المنطقة أكثر فعالية وأكثر نشاطًا وأكثر سلامة كانت القرارات أكثر دقة وحكمة، وبالتالي كان الإنسان على طريق مستقيم، ومن هنا ربما ندرك سرّ الربط الإلهي بين الناصية وبين الصراط المستقيم في الآية الكريمة (مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ). وفي هذا إشارة إلى أهمية هذه المنطقة في سلوك الإنسان وهذا ما أثبته العلم وأشار إليه القرآن..

والرسول -ﷺ- لا ينطق عن الهوى، وكلامه صلوات الله وسلامه عليه منبثق من القرآن الكريم فالقرآن أول كتاب يحدد مهام الجزء الأمامي من الدماغ ويصفه وصفًا دقيقًا من الناحية العلمية؛ إذ وصف الناصية بالخاطئة: (نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ)، كما أنه ربط بين الناصية وبين الخطأ، وهذا ما كشفه العلماء حديثًا جدًا، فهوسبق علمي للقرآن.

*****

# المبحث الثالث
# عرض القفا بين الإعجاز العلمي والبيان النبوي

**حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ، عَنْ حُصَيْنٍ، عَنِ الشَّعْبِيِّ، عَنْ عَدِيٍّ، قَالَ: أَخَذَ عَدِيٌّ عِقَالًا أَبْيَضَ، وَعِقَالًا أَسْوَدَ حَتَّى كَانَ بَعْضُ اللَّيْلِ نَظَرَ فَلَمْ يَسْتَبِينَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: جَعَلْتُ تَحْتَ وِسَادِي عِقَالَيْنِ، قَالَ: «إِنَّ وِسَادَكَ إِذًا لَعَرِيضٌ أَنْ كَانَ الخَيْطُ الأَبْيَضُ، وَالأَسْوَدُ تَحْتَ وِسَادَتِكَ»**[1].

**حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنْ مُطَرِّفٍ، عَنِ الشَّعْبِيِّ، عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَا الخَيْطُ الأَبْيَضُ، مِنَ الخَيْطِ الأَسْوَدِ أَهُمَا الخَيْطَانِ، قَالَ: «إِنَّكَ لَعَرِيضُ القَفَا، إِنْ أَبْصَرْتَ الخَيْطَيْنِ»، ثُمَّ قَالَ: «لاَ بَلْ هُوَ سَوَادُ اللَّيْلِ، وَبَيَاضُ النَّهَارِ»**[2].

**حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي مَرْيَمَ، حَدَّثَنَا أَبُو غَسَّانَ مُحَمَّدُ بْنُ مُطَرِّفٍ، حَدَّثَنِي أَبُو حَازِمٍ، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، قَالَ: وَأُنْزِلَتْ: {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الخَيْطِ الأَسْوَدِ} [البقرة: ١٨٧] وَلَمْ يُنْزَلْ: {مِنَ الفَجْرِ} [البقرة: ١٨٧] " وَكَانَ رِجَالٌ إِذَا أَرَادُوا الصَّوْمَ رَبَطَ أَحَدُهُمْ فِي رِجْلَيْهِ الخَيْطَ الأَبْيَضَ وَالخَيْطَ الأَسْوَدَ، وَلاَ يَزَالُ يَأْكُلُ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُ رُؤْيَتُهُمَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ بَعْدَهُ:**

---

١ صحيح البخاري / ٦٥ ـ كتاب تفسير القرآن / باب قوله: {وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد} [البقرة: ١٨٧] " / حديث رقم٤٥٠٩

٢ صحيح البخاري / ٦٥ ـ كتاب تفسير القرآن / باب قوله: {وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد} [البقرة: ١٨٧] " / حديث رقم ٤٥١٠

**{مِنَ الفَجْرِ} [البقرة: ١٨٧] «فَعَلِمُوا أَنَّمَا يَعْنِي اللَّيْلَ مِنَ النَّهَارِ»[١].**

**الحقائق العلمية:**

**ثبت علميا أن مركز الإبصار يقع في القفا من القشرة الدماغية، وثبت أن القشرة الدماغية تتكون من مناطق ذات مساحات متباينة وكل منطقة مسؤولة عن مهارة أو حاسة من الحواس، وأنه كلما زادت مساحة تلك المنطقة زادت المهارة المعنية بها لزيادة عدد الخلايا الخاصة بها في القشرة الدماغية.**

**وتحدث الرؤية بأن تسقط أشعة الضوء المنكسرة من الجسم المرئي فتكون صورة على شبكية العين فتقوم خلايا الشبكية (قضبانية ومخروطية) بتحويل هذه الصورة إلى موجات أو إشارات عصبية تُنقل عن طريق عصب العين إلى القشرة الدماغية (مركز النظر) الموجودة في القفا حيث يقوم هذا المركز بتحويل هذه الإشارات مرة أخرى إلى صورة تعكس تماما الجسم المرئي بكل تفاصيله الدقيقة، وفي كل شبكية عين ١٠٥ مليون خلية منها ٥ مليون فقط مخروطية الشكل، أما عدد ألياف عصب العين فهو حوالي مليون تنقل إلى حوالي مليون خلية في القشرة الدماغية (مركز النظر) مع العلم أن القشرة الدماغية بكاملها تتكون من حوالي ٢٠ بليون خلية تنتشر على حوالي ٢ متر مربع، ومركز النظر يقوم أيضًا بوظائف كثيرة إلى جانب حدة النظر منها: تحديد شكل الجسم المرئي واللون والبعد والموقع والاسم، وكذلك التنسيق مع المراكز الدماغية الأخرى**

---

١ صحيح البخاري / ٦٥ - كتاب تفسير القرآن / باب قوله: {وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد} [البقرة: ١٨٧] " / حديث رقم٤٥١١

وهلم جرًا، ولذلك فإن مساحة مركز النظر لابد أن تكون أعرض من ناتج العملية الحسابية للمعطيات السابقة حتى تتكون رؤية غير منقوصة.

**وجه الاعجاز:**

* أعضاء الإحساس ممثلة بمساحة على القشرة الدماغية، وتمثيل العين هنا فقط للإحساس (كاللمس) أما تمثيل العين فيما يخص النظر فهو في القفا .

*الحديث حدد مكان مركز الإبصار وهو القفا.

*الحديث ربط بين مساحة القشرة الدماغية للقفا وقوة البصر لقوله عريض القفا فهذه المساحة من القشرة الدماغية تتناسب مع المهارة المطلوبة.

الحديث حدد لونين فقط وهما الأسود والأبيض.*

**البلاغة في الحديث:**

العرب تقول فلان عريض القفا إذا كان فيه غباوة وغفلة، وقد جزم الزمخشري بأن هذه التعبيرات كناية عن الغفلة وعدم الفطنة فإنه يكنى عن الأبله بعريض القفا؛ لأن عرض القفا إذا زاد دليل الغباوة والحماقة فقال: " إنما وصف عدي بعريض القفا لأنه غفل عن البيان، وعرض القفا مما يستدل به على قلة الفطنة، وأنشد في ذلك شعرًا.

فكأن الزمخشري جعل عرض الوسادة كناية عن عرض وعظم الرأس والقفا، وجعل عرض القفا كناية عن قلة الفطنة، وأنا لست مع هذا الفهم الذي قال به الزمخشري؛ لأني لا أستطيع القول بأن رسول الله -ﷺ- قد عاب أحدًا أو عرّض بغبائه على هذا الشكل، طالما أن المعنى يحتمل غير هذا، خاصة وأنه قد تأخر نزول قوله تعالى " من الفجر" عن باقي الآية عامًا كاملًا كما قيل، وهذا اللفظ هو الذي يبين ويحدد مراد الله من الخيط

الأبيض والخيط الأسود، وبدونه تتجه الأفهام إلى الحقيقة وهي غير مرادة فدخلت المسألة في قاعدة تأخير البيان عن وقت الحاجة وهي مشهورة في كتب الأصول.

ولذا فإني آنس لقول القرطبي والقاضي عياض، فقد أنكرا ومعهم كثير ذلك الفهم، فقد قال القرطبي:" حمله بعض الناس على الذم له على ذلك الفهم، وكأنهم فهموا أنه نسبه إلى الجهل والجفاء وعدم الفطنة، وعضدوا ذلك بقوله "إنك عريض القفا" وليس الأمر على ما قالوه؛ لأن من حمل اللفظ على حقيقته اللسانية التي هي الأصل إن لم يتبين له دليل التجوز لم يستحق ذمًا ولا ينسب إلى الجهل، وإنما عنى- والله أعلم- أن وسادك إن كان يغطي الخيطين اللذين أراد الله فهو إذًا عريض واسع، ولهذا قال في أثر ذلك:" إنما ذلك سواد الليل وبياض النهار "، فكأنه قال: فكيف يدخلان تحت وسادتك ؟ وقوله " إنك لعريض القفا" أي إن الوساد الذي يغطي الليل والنهار لا يرقد عليه إلا قفا عريض للمناسبة.

وقال القاضي عياض: " إنما أخذ عدي العقالين وجعلهما تحت رأسه، لكونه سبق إلى فهمه أن المراد بها هذا، وكذا وقع لغيره ممن فعل فعله حتى نزل قوله تعالى " من الفجر"، فعلموا أن المراد به بياض النهار وسواد الليل أ.هـ.

إننا نُدرّس الحديث لأبنائنا على أنه كناية عن الغباء وقلة الفطنة، وهذا الفهم وإن كان صحيحًا ويتحمله الحديث النبوي، إلا أن هناك فهمًا آخر كما سبق وهو فهم يتلاءم مع خلق رسول الله -ﷺ- وعفة لسانه، كما أن هناك فهمًا ثالثًا لحديث رسول الله -ﷺ- في ضوء الاكتشافات العلمية وتقدم العلم والبحث، هذا الفهم يأخذ بعدًا آخر في المعنى وهو بعد أعمق يدل دلالة صادقة لا شك فيها على أن رسول الله -ﷺ- لا ينطق عن

الهوى، وأن أحاديثه مما ينبغي أن تدرس بدقة شديدة، وصورة جديدة في ضوء معطيات العلم فهي مفخرة للمسلمين ودليل علمي على صلاحية السنة لكل زمان ومكان، فهي تحوي الكثير من إشارات العلم التي لو تأملناها ونقبنا فيها لاستخرجنا الكثير والكثير، ولاستطعنا أن نكون سباقين إلى هذه الإشارات وتزويد أهل العلم والاختصاص بها، واستطعنا أن نقود حركة الحضارة والتقدم مرة أخرى من جديد، فبين أيدينا تراث نفيس، كما أنه إلى جانب هذا الفيض العلمي للحديث الشريف نجد فيضًا آخر في كيفية صياغة هذا العلم، فهو يعلمنا كيف تكون لغة العلم التي تختلف تمامًا عن لغة الأدب والفن، فهي لغة موجزة دقيقة اختيرت كلماتها بعناية شديدة، فقال ( عريض القفا) ولم يقل ( كبير القفا)؛ لأن المساحة وليس الحجم هي الأهم وفي ذلك إعجاز، فقد ثبت علميًا أن مركز الإبصار يقع في القفا من القشرة الدماغية، وثبت أن القشرة الدماغية تتكون من مناطق ذات مساحات متباينة، وكل منطقة مسؤولة عن مهارة أو حاسة من الحواس، وأنه كلما زادت مساحة تلك المنطقة زادت المهارة المعنية بها لزيادة عدد الخلايا الخاصة بها في القشرة الدماغية.

وتحدث الرؤية بأن تسقط أشعة الضوء المنكسرة من الجسم المرئي فتُكَون صورة على شبكية العين، فتقوم خلايا الشبكية (قضبانية ومخروطية) بتحويل هذه الصورة إلى موجات أو إشارات عصبية تُنقل عن طريق عصب العين إلى القشرة الدماغية (مركز النظر) الموجودة في القفا حيث يقوم هذا المركز بتحويل هذه الإشارات مرة أخرى إلى صورة تعكس تماما الجسم المرئي بكل تفاصيله الدقيقة، وفي كل شبكية عين ١٠٥ مليون خلية منها ٥ مليون فقط مخروطية الشكل، أما عدد ألياف عصب العين فهو حوالي مليون تنقل إلى حوالي مليون خلية في القشرة الدماغية

(مركز النظر) مع العلم أن القشرة الدماغية بكاملها تتكون من حوالي ٢٠ بليون خلية تنتشر على حوالي ٢ متر مربع، ومركز النظر يقوم أيضًا بوظائف كثيرة إلى جانب حدة النظر منها: تحديد شكل الجسم المرئي واللون والبعد والموقع والاسم، وكذلك التنسيق مع المراكز الدماغية الأخرى وهلم جرًا، ولذلك فإن مساحة مركز النظر لابد أن تكون أعرض من ناتج العملية الحسابية للمعطيات السابقة حتى تتكون رؤية غير منقوصة.

فصلوات ربي وسلامه على من لا ينطق عن الهوى.

ثم إنه قد خص القفا دون غيره من الأعضاء؛ لأن مركز الإبصار يقع في القفا من القشرة الدماغية، فما أروع هذا الخطاب وأعجزه، ذلك الخطاب الذي استطاع أن يستوعب فهم المتلقي وقتئذٍ فقد كان واضحًا لديه ذلك الخطاب فلا لبس فيه ولا غموض؛ لأن الرسول -ﷺ- خاطبهم بلغتهم وأسلوبهم إذ كانوا يستخدمون عرض القفا وكان هذا معروف عند العرب وأنه كناية عن قلة الفطنة، واستطاع هذا الخطاب نفسه أن يستوعب فهم متلقي هذا العصر بكل ما أوتي من معطيات علمية، إنه يمكننا القول بأن تحديد المجاز من عدمه تلعب فيه الثقافة والفكر والتقدم العلمي دورًا كبيرًا، فما يمكن اعتباره مجازًا في بيئة معينة ومتلقي معين قد يكون حقيقة في بيئة أخرى ومتلقي آخر.

كما نجد الحديث حدد الخيط الأبيض والأسود، وخص هذين اللونين دون غيرهما؛ لأن فيهما الإعجاز، ولم يقل الخيط الأحمر من الأصفر؛ لأنه لا يمكن أن يراهما ولو كان قفاه بعرض السماء والأرض؛ لأن خلايا الشبكية نوعان ( قضبانية ومخروطية ) قضبانية الشكل هي وحدها المسؤولة عن الرؤية الليلية ولا تستطيع أن ترى سوى الأبيض والأسود، أما المخروطية فهى المسؤولة عن رؤية الألوان ولكنها لا ترى في الليل على الإطلاق.

الزهراء

# المبحث الرابع
# مفاصل جسم الإنسان بين الإعجاز العلمي والبيان النبوي

**١- عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله -ﷺ- قال:**
**"إِنَّهُ خُلِقَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَى سِتِّينَ وَثَلَاثِ مِائَةِ مَفْصِلٍ، فَمَنْ كَبَّرَ اللَّهَ، وَحَمِدَ اللَّهَ، وَهَلَّلَ اللَّهَ، وَسَبَّحَ اللَّهَ، وَاسْتَغْفَرَ اللَّهَ، وَعَزَلَ حَجَرًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ، أَوْ شَوْكَةً، أَوْ عَظْمًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ، وَأَمَرَ بِمَعْرُوفٍ، أَوْ نَهَى عَنْ مُنْكَرٍ عَدَدَ تِلْكَ السِّتِّينَ وَالثَّلَاثِ مِائَةِ السُّلَامَى، فَإِنَّهُ يَمْشِي يَوْمَئِذٍ وَقَدْ زَحْزَحَ نَفْسَهُ عَنِ النَّارِ "، " [١]**

**٢- عن بريدة رضي الله تعالى عنه أنه قال: سمعت رسول الله -ﷺ- يقول:" فِى الإِنْسَانِ سِتُّونَ وَثَلاَثُمِائَةِ مَفْصِلٍ فَعَلَيْهِ أَنْ يَتَصَدَّقَ عَنْ كُلِّ مَفْصِلٍ مِنْهَا صَدَقَةً ». قَالُوا فَمَنِ الذي يُطِيقُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ « النُّخَاعَةُ فِى الْمَسْجِدِ تَدْفِنُهَا أَوِ الشَّىْءُ تُنَحِّيهِ عَنِ الطَّرِيقِ فَإِنْ لَمْ تَقْدِرْ فَرَكْعَتَا الضُّحَى تُجْزِئُ عَنْكَ" [٢].**

## معنى المفصل في الحديث:

**المفصل هو: الالتقاء بين أي عظمتين، أو عظمة وغضروف، أو غضروفين في أي موضع بجسم الإنسان ما دام بينهما فاصل[٣].**

**وهذا التعريف الذي في المعاجم يضبط مدلول كلمة (مفصل ) بالضابط العلمي الذي يشمل المفاصل التي تشارك فيها الغضاريف، ولا يتعارض مع المراجع العلمية الحديثة، ولكن يضبطها حسب المدلول اللغوي لكلمة (مفصل والذي يعنى وجود (فاصل) بين شيئين.**

**التعليق على الحديث:**

---

١ صحيح مسلم، كتاب الزكاة: ٦٩٨/ ٢ – ١٠٠٧

٢ سنن أبي داود كتاب الأدب حديث رقم ٤٥٦٣، مسند الإمام أحمد ٢٣٧٠٠/

٣ ينظر المعجم الوسيط مادة فصل ص٧٢٥

يرشدنا الرسول -ﷺ- في هذين الحديثين الشريفين إلى طُرقٍ من أبواب الخير، تزكو بها نفوسُنا، وتكون سببًا لنجاتنا من النار، وأن على المسلم أن يقدم الشكر لله تعالى على ما وهبه من هيكل عظمي منتصب مستقيم ميزه الله تعالى به عن جميع الخلائق فجاء مكونًا من عدد هائل من الغضاريف و العظام و جعل بين كل عظمتين منها مفصلًا يتيح لهذا العدد الهائل من العظام حماية الأجزاء اللينة من جسم الإنسان، ودعمه، وإعطائه قدرًا من مرونة الحركة تسمح للإنسان بالجلوس و النوم و غير ذلك من الحركات التي مكنه الله تعالى منها، ومع هذه المعاني كلها التي يحملها هذان الحديثان النبويان الشريفان إلا أن فيهما إشارةً علميَّة، ومعلومة تشريحيَّة، عرضها رسول الله -ﷺ- بدقة متناهية النظير، ألا وهي عدد مفاصل جسم الإنسان، وهي ثلاثمائة وستون مَفصلًا، في زمن لم يكن متوفرًا فيه للإنسان أدنى علم بالتشريح، أو عدد عظام الهيكل العظمي، أو عدد المفاصل، وفي العلم الحديث ظل الجهل بهذه المعلومة الدقيقة إلى وقت قريب برغم التقدُّم في وسائل التشخيص والأشعة والتصوير وتعدُّدها، لكن بعد ذلك استطاع بعضُ علماء التشريح أنْ يقوموا بدراسة هذه المفاصل المركَّبة وتفكيكها، واكتشفوا حينئذٍ أنها ثلاثمائة وستون مفصلًا لا تزيد ولا تنقص، والسؤال هنا: هل حديث النبي -ﷺ- يُعدُّ علمًا تشريحيًّا دقيقًا أو لا؟ ومَن الذي علَّمه هذا العلمَ الذي سَبَقَ كلَّ وسائل التشخيص الحديثة؟ وأنى لهذا الرسول الأُمِّي أنْ يُدْرِكَ بِدقةٍ مثلَ هذه الحقائق النفيسة بهذه الكلمات الشريفة الدقيقة المختارة بعناية، وهذا الأسلوب المؤكد الذي لا يحتمل ترددًا ولا شكًا في إعلان هذه الحقيقة التشريحية التي قالها المصطفى -ﷺ- لتنطق بصدق الرسالة، وبتصديق صاحب الرسالة؟إنه الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى.

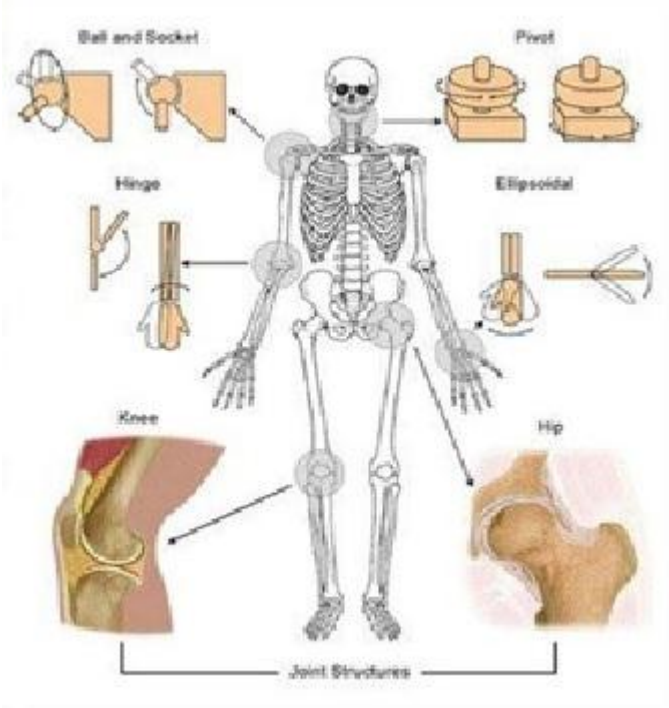


إن عددًا كبيرًا من أساتذة الطب في مطلع القرن الحادي والعشرين لم يعرف بالضبط عدد المفاصل في جسم الإنسان، كما أن عددًا كبيرًا من الدوائر العلمية تهرب بوضوح من تحديد عدد العظام و الفواصل في الهيكل العظمي للإنسان و تضعها في مجموعات كبيرة كما فعلت دائرة المعارف البريطانية التي جمعت عظام و فواصل هيكل الإنسان في مجموعات ثلاث دون تحديد هي:

١- الهيكل المحوري و يشمل العمود الفقري و معظم الجمجمة.

٢- الهيكل الأحشائي و يشمل القفص الصدري و الفك السفلي و بعض أجزاء الفك العلوي.

٣- الهيكل الطرفي: و يشمل عظام الحوض و أحزمة الأكتاف و عظام و

**غضاريف الأطراف.**[1]

**ولكن الأطباء في العصر الحديث قرروا أن المجموع الكلي للمفاصل في جسم الإنسان هو بالضبط ثلاثمائة وستون مفصلاً كما قرر رسول الله –ﷺ–، ومن هؤلاء الأطباء الدكتور حامد أحمد حامد**[2] **، حيث فصلها كالآتي:**

**أولًا:**

**العمود الفقري ١٤٧ مفصلًا منها:**

**٢٥ مفصلًا بين الفقرات.**

**مفصلًا بين الفقرات والأضلاع. ٧٢**

**٥٠ مفصلًا بين الفقرات عن طريق اللقيمات الجانبية.**

**ثانيًا:**

**بالصدر ٢٤ مفصلًا منها:**

**٢ مفصلًا بين عظمتي القص والقفص الصدري**

**١٨ مفصلًا بين القص و الضلوع**

**٢مفصل بين الترقوة و لوحي الكتف**

**٢مفصل بين لوحي الكتف و الصدر**

**ثالثًا:**

**بالطرف العلوي ٨٦ مفصلًا منها**

**٢مفصل بين عظام الكتفين**

**٦مفاصل بين عظام الكوعين**

**٨مفاصل بين عظام الرسغين**

---

١ الإعجاز العلمي للدكتور / أحمد محمد رضا جـ ١ صـ ٦٩: صـ ٧١.

٢ رحلة الإيمان في جسم الإنسان حامد أحمد حامد

٧٠مفصلا بين عظام اليدين

**رابعًا:**

بالطرف السفلي ٨٨ مفصلًا منها

٢ مفصل للفخذين

٦ مفاصل بين عظام الركبتين

٦ مفاصل بين عظام الكاحلين

٧٤مفصلا بين عظام القدمين

**خامسًا:**

بالحوض ١٥ مفصلًا منها

٤مفاصل بين عظام الركبة

٤مفاصل بين فقرات العصعص

٦مفاصل بين عظام الحق

١مفصل الإرفاق العاني

**المجموع:** ٣٦٠ مفصلًا

وهذه هي المفاصل المتحركة التي تعطي الهيكل العظمي القدرة على الحركة بمرونة، أما الفواصل الثابتة لتلك الموجودة بين عظام الجمجمة فلا تدخل في عداد السلامي، و هي المفاصل التي تتم عبرها الحركة و تعرف باسم "المفاصل الزليلية" لاحتوائها على سوائل تعين على انزلاق العظام دون ارتطام بعضها ببعض و يعرف باسم (السائل الزليلي).

ولولا الفواصل التي وهبها الله سبحانه وتعالى للإنسان لما تحرك الهيكل العظمي بصورته المرنة؛ لذلك أوصانا رسول الله -ﷺ- بضرورة شكر الله تعالى كل يوم تطلع فيه الشمس عليه بعدد هذه السلامي في الجسد.

وهكذا تتضح آية جديدة من آيات الإعجاز العلمي في السنة النبوية

المطهرة ما كان لبشر أن يحيط بها في زمن النبوة مصداقاً لقوله تعالى (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) ٥٣فصلت.

إن هذا الحديث الشريف ينقُلُنا إلى علم التشريح الوصفي، ذلك العلم المبني على المشاهدة والحساب والدقة فيها، فجسم الإنسان مكون – كما هو معروف – من الهيكل العظمي الذي يكون أساس هذا الجسم ومرتكزه، وبه قوامه وحركته، ولولا هذا الهيكل العظمي لما استطاع الإنسان بقامته الممشوقة أن يتحرك وينتقل ويعمل.

وصدق رسول الله –ﷺ– في هذا الإخبار الدقيق كل الدقة، وجاءت العلوم الحديثة لتقرِّر ما سبق أن قرره، وأخبر به، فبذلك كان الإعجاز العلمي لرسول الله –ﷺ– واضحًا حين أعلمنا بمقدار المفاصل الموجودة في جسم الإنسان حين كان من المتعذر على أي إنسان أن يخبر بمثل ذلك.

إن هذا الحديث النبوي الشريف يتحدث في علم التشريح بدقة متناهية النظير، وبأسلوب مؤكد يتناسب مع ما أقرته العلوم الحديثة، وأخبرت به، والذي كان متعذر على أي إنسان في هذا الوقت أن يخبر بمثل ما أخبر به رسول الله –ﷺ–.

وقد اشتمل هذا الحديث على التأكيد "بإن" مرتين المرة الأولى هي تأكيده –ﷺ– على عدد مفاصل جسم الإنسان، وأنه مخلوق على ستين وثلاثمائة مفصل، كما جاء هذا التأكيد لتقرير هذه الحقيقة في نفس المتلقى؛ إذ أن هذا الأمر غريب؛ لأن معرفة عدد مفاصل جسم الإنسان لم يدرك إلا في القرن الحادي والعشرين؛ فلذلك جاء التأكيد بليغًا في موضعه، والمرة الثانية التي ورد فيها التأكيد جاءت في جانب الجزاء والثواب فإن رسول الله– –ﷺ– –ضمن لمن فعل ما هو وارد بسياق

**الحديث أن يزحزح عن النار، وزاد ذلك تأكيدا بقوله:" وقد زحزح" فأكد الكلام بقد التي أفادت التحقيق..**

**و " إنَّ "هنا دخلت على ضمير الشأن(إنَّهُ)، ويسمى ضمير القصة، حيث تجد لضمير الشأن معها من الحسن واللطف ما لا تراه، إذا هي لم تدخل عليه، بل تراه لا يصلح حيث صلح إلا بها، ومن هنا كثر هذا الأسلوب في القرآن الكريم، وفي حديث رسول الله -ﷺ-...**

**ثم إننا نلاحظ بناء الفعل للمجهول، فقد جاء في هذا الحديث الفعل (خُلِقَ)، مبنيًا للمجهول؛ لأن الهدف منصب على الفعل وهو الذي بني عليه سياق الحديث فالمراد إثبات خلق الإنسان على ثلاثمائة وستين مفصلًا، هذا إلى جانب أننا نجد فعلًا بعينه يدور في مواضع كثيرة مبينًا للمجهول؛ ليقرر الحقيقة دامغة واقعة شاخصة للعيان، لا جدال فيها ولا مراء، وذلك كالفعل (خُلِقَ) فالفاعل معلوم واضح لا يختلف عليه اثنان وهو الله -عز وجل- فهو القادر على الخلق، والأهم من ذلك والأبلغ هو الإيجاز والاختصار في مقام إعطاء معلومة علمية، فمقامات الكلام وسياقاته هي التي تحمل دلالة الحذف من موضع لآخر، فليس الغرض متعلقًا أو دالًا من حيث لفظته المفردة، ولكنه يأتي من النظر في التركيب وتعلق الألفاظ ببعضها.**

**والغرض من الكلام، وتفسير هذا كما يذكر عبد القاهر الجرجاني " أنه ليس إذا راقك التنكير في سؤدد "[1] من قوله: تنقل في خلقي سؤدد وفي**

---

١ سؤدد يقصد الشيخ البيت الذي استشهد به من قول البحتري: تنقل في خُلقي سؤدد سماحا مرجَّي وبأسا مهيبا.

**دهر من قوله: فلو إذ نبا دهر [1] فإنه يجب أن يروقك أبدًا وفي كل شئ، ولا إذا استحسنت لفظ ما لم يسم فاعله في قوله وأنكر صاحب، (لم يقل: أنكرت صاحبا)، فإنه ينبغي أن لا تراه في مكان إلا أعطيته من استحسانك ههنا؛ بل ليس من فضل ومزية إلا بحسب الموضع، أو بحسب المعنى الذي تريد، والغرض الذي تؤم " [2].**

**إن الفعل بهذه الهيئة أعني هيئة بنائه للمجهول قام بتصوير المشهد الغيبي وهو المشهد التشريحي لخلق الإنسان، ذلك المشهد الذى غابت دقائقه عن المتلقى أو خفى عن ذهنه وخياله، فقد عمل عملًا حيًا يساعد نفس الملتقي على تلقي كينونة المشهد بمعناه العميق؛ ليتدارك خياله ما قصرت عنه حواسه المادية. فالسياق هنا قد حمل أكثر من غرض لعدم تسمية الفاعل، مع إبرازه غرضًا أساسيًا جوهريًا حاملًا معه من الأغراض ما يتطلبه المعنى ويقتضيه المقام.**

**ثم لنتأمل في قوله: "يمشى يومئذ" كان من الممكن أن يقول-ﷺ- (فإنه**

---

١ هو من البيت الذي استشهد به الشيخ عبد القاهر من قول إبراهيم بن العباس الصولي يمدح محمد بن عبد الملك الزيات:

فلو إذ نبا دهر وأنكرَ صاحب وسلط أعداء وغاب نصير

تكون عن الأهواز داري بنجوة ولكن مقادير جرت وأمور

وقد علق الشيخ عبد القاهر على طلاوة هذا الأسلوب من أجل تقديم الظرف إذا نب على عامله تكون دون كان وتنكير دهر الذي ساقه في جميع ما أتي به من بعد، وبناء الفعل أنكر للمجهول.انظر دلائل الإعجاز ص١٢٦،ص١٢٧

٢ عبد القاهر الجرجاني – دلائل الإعجاز – تحقيق عبد المنعم خفاجي – مكتبة القاهرة – مصر – ١٩٨٠ – ص ١٢٨

يزحزح عن النار) ولكنه أتى بالفعل المضارع يمشى بقوله "يمشى يومئذ"؛ لاستحضار صورته يوم القيامة، وهو يمشى في هذا اليوم الذي يضعف فيه الإنسان، ولا يكون له فيه إلا عمله ورحمة ربه.

وفى قوله كل إنسان إشارة إلى أنه لا يُستثنى أحد من جنس البشر إلا وقد خلق على هذا العدد من المفاصل، وهذا العموم يحمل في طياته ثقة شديدة ويقين تام بهذه المعلومة التي لا يمكن إلا أن تكون وحيًا من الله عز وجل، ثم إنه في الحديث الثاني قد أكد هذه المعلومة لتصبح أمرًا مسلمًا لا جدال فيه ولا نقاش وذلك عن طريق القصر بالتقديم عندما قال (فِى الإِنْسَانِ)أي لا في أحد غيره.

وجمال القصر هنا يكمن في قوته؛ لأن تمكين الكلام وتقريره في الذهن لا يكون إلا بكلام قوي في السبك والتأثير، والقصر يؤكد الكلام تأكيدًا حاسمًا يقطع شك المخاطب، ويزيل جهل الجاهل، ويدحض موقف المخالف بخلاف التأكيد بإن إذ التأكيد بها يكون عن جواب سؤال سائل قد تسرب الشك إليه، أو لإزالة إنكار منكر إذا اقترنت بمؤكد آخر [1].

ومثل هذا التأكيد الذي بهذه الصورة هو تأكيد أولي لسهولة إدراكه، وهو ما لا يتناسب هنا مع حقيقة تشريحية صعب استيعابها في عهد رسول الله -ﷺ-، ولذا وجدنا الرسول عدل عن التأكيد بإن إلى التأكيد بالقصر؛ لأنه مركب من ثنائية متضادة يظهر فيه المخاطب موقفًا مغايرًا للمتكلم، فيأتي القصر مجليًا الحقيقة على نحو تدريجي يدحض موقف المخاطب فيكون بهذا خطابًا صالحًا لكل وقت وآن، متماشيًا مع كل فهم، وكل ثقافة، وكل تطور علمي، ثم إنه لما اختار القصر دون غيره طريقًا للتأكيد اختار

١ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص٣١٥.

من بين طرقه المتعددة التقديم وآثره هنا دون غيره وهذا يدل على الذوق السليم والفكر الصائب والبلاغة التي لا نظير لها في خطاب البشر؛ إذ إنه لا يصلح في هذا الموقع إلا التقديم؛ حيث يمتاز بأنه طريق معنوي يفهم من السياق بخلاف طرق القصر الأخرى التي تدل على القصر بالوضع اللغوي (الأدوات) فهو طريق فيه سعة وخفاء، لا يدركها إلا متمرس متأمل، هذه السعة وذاك الخفاء يتناسب مع سعة هذه المعلومة وخفائها وقت إعلانها، فهو طريق خفي يستثير لذة المتلقي وقت الخطاب، وطريق مؤكد يؤكد الحقيقة حال اكتشافها.

ثم إنه -ﷺ-غاير في طرق العطف فاستخدم الواو واستخدم أو، وهذا له دلالته البلاغية، إذ استخدم الواو في الموضع الذى أراد فيه الجمع بين أشياء عدة على الإنسان الالتزام بها، وهي التكبير والحمد والتسبيح والاستغفار، لأنها كلها مرتبطة بذكر الله -عز وجل-، كما استخدم الواو في الجمع بين الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؛ لأنه لا يتصور التخيير بينهما..

وقد استخدم (أو) في موطن إماطة الأذى عن الطريق، توسعة في كسب الخير وتنوع مصادره؛ لأنه قد يعترضني حجر، وقد يرى الآخر عظمًا، وقد يرى ثالث شوكًا، وهكذا كما أن فيه فتحًا ومجالًا للتوسعة لاختيارات أخرى، ولذا نجده -ﷺ- في الحديث الثاني أعطى مزيدًا من التوسعة التي يستطيع أن يقوم بها كل شخص فلا تكون هناك حجة لأحد، ولا تكون عدم الاستطاعة مسوغًا للتكاسل عن العمل، وأداء شكر نعمة الله فقال: (النُّخَاعَةُ فِى الْمَسْجِدِ تَدْفِنُهَا) أي: أيها المخاطب فالخطاب عام عدل فيه عن صيغة الجمع، لئلا يتوهم الاختصاص بالصحابة، أي: دفنها صدقة، ففيه إيجاز بالحذف، وفي هذا الحذف دعوة إلى تركيز انتباه المخاطب

على الحدث الذي هو دفن النخاعة، خاصة وأن المحذوف معلوم؛ لدلالة السياق السابق عليه ووجود قرينة حذفه في الجملة قبله في قوله: (فَعَلَيْهِ أَنْ يَتَصَدَّقَ عَنْ كُلِّ مَفْصِلٍ مِنْهَا صَدَقَةً ) ففي ذكره عبث وحاشا لرسول الله -ﷺ- أن يذكر ما فيه عبث، فقد سلم كلامه من التطويل المؤدي بالسامع إلى السآمة والملل، ومن الوقوع في العيب والخطأ. يقول محمد الخطابي: "وقد أمد الله رسوله جوامع الكلم التي جعلها ردئا لنبوته، وعلما لرسالته، لينتظم في القليل منها علم الكثير، فيسهل على السامعين حفظه ولا يؤودهم حمله."[1]

كذلك استمر الحذف في قوله: (فإن لم تقدر) والتقدير: فإن لم تقدر على دفنها وعلى تنحية الشيء عن الطريق، فالحذف هنا جاء في قمة البلاغة؛ إذ حافظ على سلامة النص من الخلل، في الوقت الذي أبقى فيه على وحدة النص وتماسكه ووضوحه، وهذا الحذف من شأنه أن يفتح مجال الاتساع أمام المتلقى في تخييل الدلالة الإيحائية وتصوير المعاني المحتملة، والذي يؤدي بالتأكيد إلى تحقيق الغرض الذي يرمي إليه.

إنني أتصور في هذا الحذف عدم قدرة على المزيد من الكلام ناشئة من عدم الاحتياج إليه لوضوح الدلالة عليه، وهو ما يتناسب تمامًا مع قوله: ( فإن لم تقدر) لكن مع المخالفة في أن هذه القدرة ناشئة عن عدم الاستطاعة، وقد تكون ناشئة عن عدم صلاحية المخاطب للقيام بهذه الأعمال لأن مهمة أناس آخرين قد أسند لهم هذا العمل بصورة رسمية

---

١، غريب الحديث، محمد الخطابي، نقلا عن كتاب أبو الفرج عبد الرحمن شهاب الدين، جامع العلوم والحكم، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، ط٣، (١٤١٢هـ/١٩٩١م)، ص٧٦.

**وفي القيام به تعد على وظائفهم مما يثير المشاكل ويجلب المعارك، فأسباب القدرة أعمق من مجرد اختزالها في سبب واحد وهو عدم المقدرة المادية، إذ قد يكون من معناها أيضًا أن الأوضاع في قمة عالية من الدقة والنظام، وأن جميع الأمور على ما يرام فلا احتياج للمجتمع لما أقوم به، وهذا المعنى وإن كان بعيدًا جدًا إلا أنه وارد، ونسأل الله سبحانه أن نصل بمجتمعاتنا إلى هذا الوضع الذي يدعونا إليه ديننا.**

**وقال الطيبي: الظاهر أن يقال: من يدفن النخاعة في المسجد فعدل عنه إلى الخطاب العام اهتمامًا بشأن هذه الخلال، ورده ابن حجر بأن المراد النخامة من غيره ؛ لأن دفنها حينئذ سنة مؤكدة، كما فعله – عليه الصلاة والسلام – وحث عليه، أما نخامته هو فيجب عليه دفنها ؛ لأنه ارتكب حرامًا بفعلها، فلزمه قطعه بدفنها الذي جعله الشارع كفارة لذلك اهـ.**[1]

❋ ❋ ❋

١ مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي القاري - محمد الخطيب التبريزي، تحقيق جمال العيتاني، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

الزهراء

## الخاتمـــــــــــة

**الحمد لله خلق الإنسان علمه البيان، والصلاة والسلام على النبي العدنان، حامل لواء الفصاحة والبيان المرسل بالرحمة والهداية للإنس والجان، صاحب المقام المحمود بأشرف مكان، وعلى آله وأصحابه الكرام وبعد،**

**فبعد التطواف في سنة رسول الله -ﷺ- الشارحة لمقاصد القرآن، والمفصلة لمجمله، والمخصصة لعمومه، والمقيدة لمطلقه وجدت أن الحديث النبوي الشريف له أثر بالغ في بناء الحضارة الإسلامية، واكتشاف الحقائق العلمية، ونشر رايات العلم في كل مكان، وإقرار لحقائقه؛ بما يحمله من إشارات علمية، وتوجيهات فكرية، وحقائق يقينية سبق الجميع بإعلانها بأدق لغة، وأفصح كلمة، وأسلم تركيب، وأجود عبارة.**

**ولا غرو في ذلك؛ "فكلامه -ﷺ- على جهة الصناعة اللغوية والبيانية مسدد اللفظ ، محكم الوضع ، جزل التركيب، متناسب الأجزاء في تأليف الكلام، فخم الجملة، واضح الصلة بين اللفظ ومعناه واللفظ وضريبه في التأليف والنسق ، ثم لا ترى فيه حرفًا مضطربًا، ولا لفظة مستدعاة لمعناها أو مستكرهة عليه ، ولا كلمة غيرها أتم منها أداء للمعنى وتأتيًا لسره في الاستعمال، وهذا نراه في الصياغة اللغوية، أما من ناحية الصناعة البيانية حسن المعرض بين الجملة، واضح التفصيل، بديع الإشارة، غريب اللمحة، ناصع البيان "[1].**

**كما وجدت أن أسلوب الحديث النبوي الشريف كان مميزًا في إشاراته العلمية، فهو أسلوب واضح لا لبس فيه ولا غموض ليكون صالحًا لكل**

---

١ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروتط٢، ٢٠٠١مـ، صـ٣٢٤.

**الأزمنة متناسبًا مع امتداد رسالته -ﷺ- من زمنه لزماننا، فهو أسلوب واضح مفهوم في كل زمان مهما اختلفت الثقافات وتعددت البيئات، وهو أسلوب يتسم بالإيجاز الشديد والكثافة الدلالية والسمو في المعاني.**

**كما يتسم بالبراعة الفائقة في اختيار ألفاظه، ومراعاته الفروق الدقيقة بين معاني الكلمات، يقول الرافعي:**

**"فيها سمو المعنى وفصل الخطاب وحكمة القول ودنو المأخذ، فهذه الصفات لم يتصف بها إلا البيان النبوي وهي تتعلق بالمعاني في نفسها وأنها وحي من الله، وحكمته تختلف عن حكمة الحكماء، وخطابه يسمو عن خطاب البشر "[1].**

**وبعد فهذه محاولة متواضعة لدراسة الإعجاز العلمي للسنة في ضوء البلاغة النبوية طفت خلالها مع أحاديث رسول الله -ﷺ- ومعجزاته التي تتجلى يومًا وراء يوم عشت فيها مع بلاغته وفصاحته عليه الصلاة والسلام.**

**وقد جاء هذا البحث مؤكدًا على أن للإعجاز النبوي في كل عصر وجه ينكشف للناس ودليل جديد على صدق الرسول -ﷺ-، فالسنة النبوية لا تزال تستنهض الباحثين لمزيد من البحث في آفاقها الممتدة التي لا تتوقف عند نهاية.**

**كما جاء البحث مؤكدًا على أن الإشارات العلمية الواردة في السنة النبوية تُعَدُّ من أبرز الدلائل على أن محمدًا رسول هو خاتم الأنبياء والمرسلين؛ فسبقه العلمي من قبل ألف وأربعمائة سنة، وفي بيئة بدائية لا تملك مفاتيح العلم والمعرفة، يُثبت بما لا يدع مجالًا للشكِّ أن المصدر الوحيد**

---

١ السابق، نفس الصفحة.

الذي اصطفى منه محمد رسول الله هو الله جلَّ في علاه.

وختامًا أقول إن للتعامل مع قضية الإعجاز العلمي في السنة النبوية ضوابط يجب أن تراعى منها: اختيار الأحاديث المحتوية على إشارات إلى الكون ومكوناته وظواهره، والتثبُّت من معرفة درجة الحديث، واستبعاد كل الأحاديث الموضوعة، وكذلك جمع الأحاديث الواردة في الموضوع الواحد؛ لأن بعضها يفسر بعضًا، وفهم النص أو النصوص النبوية وفق دلالات الألفاظ في اللغة العربية، ووفق قواعدها، وفهم النص النبوي في ضوء سياقه وملابساته، وفهمه في نور القرآن الكريم؛ لأن أحاديث رسول الله شارحة لكتاب الله، ومبيِّنة لدلالات آياته، كما أنه ينبغي ألاَّ يُؤَوَّل حديث لرسول الله -ﷺ- لإثبات نظرية علمية تحتمل الشكَّ والصواب، ولكن يجب التعامل فقط مع الحقائق العلمية الثابتة.

* * *

الزهراء

# المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- استشارات طبية في ضوء الإسلام والحضارة د. إبراهيم الراوي، العدد ١٩٦٧.
- الإعجاز العلمى في الإسلام والسنة النبوية بقلم: محمد كامل عبد الصمد.
- الإعجاز العلمي في الإسلام والسنة النبوية بقلم: محمد كامل عبد الصمد- موقع السراج.
- الإعجاز العلمي في السنة النبوية - موقع قصة الإسلام.
- الإعجاز العلمي في السنة النبوية زغلول النجار.
- الإعجاز العلمي للدكتور / أحمد محمد رضا.
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ٢٠٠١م.
- الإيضاح في شرح المفصل لأبي عمرو عثمان بن الحاجب، ت: موسى بناي العليلي وزارة الأوقاف والشئون الدينية، إحياء التراث الإسلامي، العراق.
- تفسير المنار محمد رشيد، رضا.
- التلخيص في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، تحقيق عبد الرحمن البرقوقي، ط٢، دار الكتاب العربي، بيروت١٣٥٠هـ، ١٩٣٢م.
- الجنى الداني في حروف المعاني لأبي القاسم المرادي، ت: د/ فخري الدين قباوة، أ/ محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان ط١، ١٤١٣- ١٩٩٢م..

- الحقائق الطبية في الإسلام "د. عبد الرزاق الكيلاني دار القلم دمشق.
- خلق الإنسان بين الطب والقرآن، الدار السعودية للنشر والتوزيع – جدة الطبعة الثامنة١٤١٢ - ١٩٩١ م.
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني – تحقيق عبد المنعم خفاجي – مكتبة القاهرة – مصر– ١٩٨٠ م.
- رحلة الإيمان في جسم الإنسان حامد أحمد حامد.
- روائع الطب الإسلامي ج (٤) الدكتور محمد نزار الدقر.
- سنن أبي داود .
- سنن الترمذي.
- سنن النسائي الكبرى.
- صحيح مسلم.
- عمدة القارئ لشرح صحيح البخاري، بدر الدين أبي محمد محمود بن أحمد العيني. د.ط، دار إحياء التراث العربي_ بيروت، د.ت.
- غريب الحديث، محمد الخطابي، نقلا عن كتاب أبو الفرج عبد الرحمن شهاب الدين، جامع العلوم والحكم، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، ط٣، (١٤١٢هـ/١٩٩١م).
- الفتوحات الربانية على الأذكار النواوية ابن علان،ط. دار الكتب العلمية.
- قصيدة النثر من التأثير للمرجعية، عبد العزيز موافي .
- كتاب الشفاء، القاضي عياض، مصطفى البابي الحلبي.
- الكتاب لسيبويه ت: عبد السلام هارون، الهيئة العامة المصرية للكتاب ط٢، ١٩٧٩مـ.

- لسان العرب أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي بن أحمد،.ابن منظور.
- مجلة الإصلاح العدد ٢٩٦ سنة ١٩٩٤ - من ندوات جمعية الإعجاز العلمي للقرآن في القاهرة.
- مجلة منار الإسلام عدد سبتمبر سنة ١٩٨٢ .
- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر عبد القادر، الرازي.
- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي القاري - محمد الخطيب التبريزي، تحقيق جمال العيتاني، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.
- مسند الإمام أحمد .
- المسؤولية المشتركة للرجل والمرأة في تحديد نوع الجنين بحث مقدم للمؤتمر الثامن للإعجاز العلمي في القرآن والسنة أ.د جمال حامد حسانين.
- المعجم الوسيط .
- معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن زكريا، ابن فارس.
- المفردات في غريب القرآن ، أبي القاسم الحسين بن محمد بن الفضل، الراغب الأصفهاني.
- المقتضب، لأبي العباس المبرد ت: محمد عبد الخالق عضيمة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية لجنة إحياء التراث، جمهورية مصر العربية ط٢، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩مـ.
- من أسرار التعبير في القرآن صفاء الكلمة، عبد الفتاح لاشين، دار المريخ الرياض١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
- موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

الزهراء